قصص من ألف ليلة
كامل كيلاني
السندباد
البحري
DVD4ARAB
دار المعارف

كامل كيلانى

قصص من ألف ليلة

السندباد البحرى

الطبعة السادسة والعشرون

دار المعارف

الإهـــداء[1]

وَلَدِي مُصْطَفَى :

قَرَأْتُ عَلَيْكَ هَـذِهِ الْقِصَّةَ وَأَنْتَ تَسْتَقْبِلُ الْعَامَ السَّابِـعَ مِنْ عُمْرِكَ فَأَعْجَبَتْكَ ، وَرُحْتَ تَقُصُّهَا عَلَى أَقْرَانِكَ الصِّغَارِ لِيُشَارِكُوكَ فِي الْإِعْجَابِ بِهَا . فَأَعَدْتَ إِلَى ذَاكِرَتِي عَهْدَ طُفُولَتِي الْمَحْبُوبَ ، أَيَّامَ كُنْتُ أُصْغِي إِلَى أَمْثَالِ هَـذِهِ الْقِصَّةِ بِشَوْقٍ وَشَغَفٍ شَدِيدَيْنِ .

وَذَكَرْتُ — إِلَى هَذَا — حَاجَةَ الْأَطْفَالِ إِلَى كُتُبٍ سَهْلَةٍ تُحَبِّبُ إِلَيْهِمُ الْقِرَاءَةَ وَتَدْفَعُهُمْ إِلَى الِاسْتِزَادَةِ مِنْهَا ، فَنَشَرْتُ لَهُمْ هَذِهِ الْقِصَّةَ الْمُمْتِعَةَ ، لِيَقْرَأَهَا كِبَارُهُمْ وَيَقُصَّهَا الْآبَاءُ عَلَى صِغَارِهِمْ .

*
* *

إِلَيْكَ إِذَنْ وَإِلَى أَتْرَابِكَ أُهْدِي هَذِهِ الْقِصَّةَ وَمَا يَتْلُوهَا مِنْ قِصَصٍ . !

كامل كيلاني

ديسمبر سنة ١٩٢٨

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.م.ع.

مقدمة

كِتَابُ « أَلْفِ لَيْلَةٍ وَلَيْلَةٍ » مِنْ أَنْفَسِ الذَّخَائِرِ الْأَدَبِيَّةِ، وَلَهُ أَثَرٌ كَبِيرٌ فِي تَنْمِيَةِ خَيَالِ الْكَثِيرِينَ مِنْ مُفَكِّرِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ، وَلٰكِنَّهُ — عَلَى نَفَاسَتِهِ — لَمْ يَلْقَ شَيْئًا مِمَّا هُوَ جَدِيرٌ بِهِ مِنَ الْعِنَايَةِ فِي الشَّرْقِ، وَلَعَلَّ إِهْمَالَهُ عِنْدَنَا رَاجِعٌ إِلَى أَسْبَابٍ ثَلَاثَةٍ وَهِيَ:

(١) رَكَاكَةُ الْأُسْلُوبِ فِي أَكْثَرِ قِصَصِهِ.

(٢) ضَعْفُ الْخَيَالِ وَسُخْفُهُ فِي الْقَلِيلِ مِنْهَا.

(٣) عَدَمُ تَحْلِيَتِهِ بِالصُّوَرِ الَّتِي تُجَلِّي أَغْرَاضَهُ وَمَعَانِيَهُ كَمَا يَفْعَلُ الْفِرِنْجَةُ.

***

وَلَمَّا كَانَ أَطْفَالُنَا فِي حَاجَةٍ إِلَى كُتُبٍ عَرَبِيَّةٍ تُحَبِّبُ إِلَيْهِمُ الْمُطَالَعَةَ وَتَجْعَلُهُمْ يُقْبِلُونَ عَلَيْهَا بِشَغَفٍ، انْتَهَزْتُ فُرْصَةَ مَيْلِهِمِ الْغَرِيزِيِّ هٰذَا إِلَى سَمَاعِ الْأَقَاصِيصِ، فَشَرَعْتُ فِي نَشْرِ طَائِفَةٍ صَالِحَةٍ مِنَ الْقِصَصِ الْمُخْتَارِ مِنْ « أَلْفِ لَيْلَةٍ وَلَيْلَةٍ » وَغَيْرِهَا، وَقَدْ عُنِيتُ بِاخْتِيَارِ الصُّوَرِ عِنَايَتِي بِاخْتِيَارِ الْقِصَصِ، بَاذِلاً كُلَّ

مَا فِى وُسْعِى فِى انْتِقَاءِ أَسْهَلِ الْأَسَالِيبِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِى يَفْهَمُهَا الْمُبْتَدِئُ بِنَفْسِهِ ، أَوْ مَعَ قَلِيلٍ مِنَ الشَّرْحِ الَّذِى نَكِلُهُ إِلَى حَضَرَاتِ الْمُعَلِّمِينَ أَوِ الْآبَاءِ .

* * *

وَلَعَلَّ خَيْرَ مَا يَقُومُ بِهِ الْمُدَرِّسُ لِلطَّالِبِ الْمُبْتَدِئِ — لِتَقْوِيَتِهِ فِى الْإِنْشَاءِ — أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ أَمْثَالِ هٰذِهِ الْقِصَّةِ الْمُشَوِّقَةِ ، وَسِيلَةً إِلَى الْمُحَادَثَاتِ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، ثُمَّ يَخْتِمَهَا بِتَكْلِيفِ الطَّالِبِ صَوْغَ مَا فَهِمَهُ فِى عِبَارَةٍ عَرَبِيَّةٍ وَاضِحَةٍ .

* * *

هٰذِهِ الطَّرِيقَةُ هِىَ أَوَّلُ مَرَاتِبِ الْإِنْشَاءِ ، وَفِى هٰذِهِ الْقِصَصِ عِبَرٌ يُمْكِنُ الْمُعَلِّمَ أَنْ يَسْتَخْلِصَهَا بِسُهُولَةٍ لِتَلَامِيذِهِ ، وَلَيْسَتْ حَاجَةُ الْبَنَاتِ إِلَى هٰذَا النَّوْعِ مِنَ الْقِصَصِ بِأَقَلَّ مِنْ حَاجَةِ الْبَنِينَ ، وَفَّقَنَا اللّٰهُ إِلَى الْخَيْرِ وَأَلْهَمَنَا الرُّشْدَ وَالسَّدَادَ .

ديسمبر سنة ١٩٢٨ — كامل كيلانى

تمهيد

الهنداباد الحمال

كَانَ بِمَدِينَةِ « بَغْدَادَ » — فِي زَمَنِ ٱلْخَلِيفَةِ « هَارُونَ الرَّشِيدِ » — حَمَّالٌ فَقِيرٌ، ٱسْمُهُ « ٱلْهِنْدِبَادُ ».

فَفِي ذَاتِ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الصَّيْفِ، جَلَسَ « ٱلْهِنْدِبَادُ » تَحْتَ قَصْرٍ عَالٍ تُحِيطُ بِهِ حَدِيقَةٌ جَمِيلَةٌ لِيَسْتَرِيحَ مِنْ عَنَاءِ السَّيْرِ، بَعْدَ أَنْ أَنْهَكَهُ ٱلتَّعَبُ وَٱلْحَرُّ الشَّدِيدُ، وَوَضَعَ — إِلَى جَانِبِهِ — حِمْلَهُ الثَّقِيلَ.

فَسَرَى إِلَيْــهِ مِنَ ٱلْحَدِيقَةِ نَسِيمٌ لَطِيفٌ حَمَلَ إِلَيْهِ رَائِحَةَ ٱلْأَزْهَارِ ٱلْعَطِرَةِ، وَهَبَّتْ عَلَيْهِ — مِنْ نَاحِيَةِ ٱلْقَصْرِ — رَائِحَةُ الشِّوَاءِ ٱللَّذِيذِ، وَٱلْأَطْعِمَةِ الشَّهِيَّةِ.

وَسَمِعَ « ٱلْهِنْدِبَادُ » الطُّيُورَ تُغَرِّدُ — عَلَى ٱخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا — فَوْقَ ٱلْأَشْجَارِ، كَمَا سَمِعَ أَصْوَاتَ ٱلْغِنَاءِ وَأَنْغَامَ ٱلْمُوسِيقَى ٱلْمُطْرِبَةِ فِي ذَلِكَ ٱلْقَصْرِ، فَخُيِّلَ إِلَيْهِ أَنَّ أَصْحَابَهُ فِي عُرْسٍ.

صَاحِبُ ٱلْقَصْرِ

وَذَهَبَ « ٱلْهِنْدِبَادُ » إِلَى أَحَدِ ٱلْخَدَمِ فَرَآهُ لَابِسًا أَبْهَى

ٱلْمَلَابِسِ وَأَحْسَنَهَا ، وَلَمَّا سَأَلَهُ عَنِ ٱسْمِ صَاحِبِ هَذَا ٱلْقَصْرِ ٱلْبَدِيعِ قَالَ لَهُ ٱلْخَادِمُ مَدْهُوشاً :

« كَيْفَ تَسْأَلُ هَذَا السُّؤَالَ ؟ أَفِي « بَغْدَادَ » كُلِّهَا مَنْ يَجْهَلُ « السِّنْدِبَادَ ٱلْبَحْرِيَّ » — صَاحِبَ هَذَا ٱلْقَصْرِ — الَّذِي مَلَأَتْ شُهْرَتُهُ ٱلْآفَاقَ، وَالَّذِي رَكِبَ ٱلْبِحَارَ ، وَجَابَ ٱلْأَقْطَارَ وَرَأَى عَجَائِبَ الدُّنْيَا ؟ »

شَكْوَى الهِنْدِبَادِ الحَمَّالِ

ثُمَّ عَادَ ٱلْحَمَّالُ إِلَى مَكَانِهِ فَجَلَسَ يُفَكِّرُ فِي هَذَا النَّعِيمِ ، وَكَانَ كَثِيراً مَا يَسْمَعُ النَّاسَ يَتَحَدَّثُونَ بِمَا نَالَهُ «السِّنْدِبَادُ» مِنْ ثَرْوَةٍ طَائِلَةٍ.

وَنَظَرَ « ٱلْهِنْدِبَادُ ٱلْحَمَّالُ » إِلَى جَمَالِ ٱلْحَدِيقَةِ وَفَخَامَةِ ٱلْقَصْرِ وَوَفْرَةِ مَا يَحْوِيهِ مِنْ غِنًى وَنِعْمَةٍ ، وَرَأَى مَا هُوَ فِيهِ مِنْ بُؤْسٍ وَشَقَاءٍ ، فَصَاحَ غَاضِباً :

« سُبْحَانَكَ رَبِّي تُغْنِي مَنْ تَشَاءُ ، وَتُفْقِرُ مَنْ تَشَاءُ ، وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ ، وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ، فَأَنَا أَتَحَمَّلُ الْهُمُومَ وَالْآلَامَ ، وَأُقَاسِي الْمَتَاعِبَ وَالْأَهْوَالَ لِلْحُصُولِ عَلَى قُوتِي وَقُوتِ عِيَالِي ، بَيْنَمَا يَنْعَمُ « السِّنْدِبَادُ » بِهَذَا الْقَصْرِ الْفَخْمِ وَمَا يَحْوِيهِ مِنْ ثَرْوَةٍ وَنَعِيمٍ ، دُونَ أَنْ يَتَكَبَّدَ أَيَّ عَنَاءٍ !

فَمَاذَا صَنَعَ « السِّنْدِبَادُ » حَتَّى اسْتَحَقَّ هَذِهِ النِّعْمَةَ ؟ وَمَاذَا فَعَلْتُ أَنَا حَتَّى كُتِبَ عَلَيَّ هَذَا الشَّقَاءُ ؟

أُصْبِحُ فِي تَعَبٍ دَائِمٍ أَعِيشُ شَقِيًّا وَقَدْ زَادَ حِمْلِي
وَغَيْرِي سَعِيدٌ — بِلَا شِقْوَةٍ — وَمَا حَمَلَ الدَّهْرَ يَوْمًا كَحِمْلِي ؟ »

⁂

وَبَيْنَمَا « الْهِنْدِبَادُ » مُسْتَغْرِقٌ فِي هَذِهِ التَّأَمُّلَاتِ إِذْ خَرَجَ مِنَ الْقَصْرِ خَادِمٌ يَدْعُوهُ إِلَى مُقَابَلَةِ سَيِّدِهِ ، فَخَشِيَ الْحَمَّالُ عَاقِبَةَ الْأَمْرِ ، وَأَدْرَكَ أَنَّ « السِّنْدِبَادَ » قَدْ سَمِعَ — بِلَا شَكٍّ — كُلَّ مَا قَالَ ، فَاعْتَذَرَ إِلَى الْخَادِمِ مُحَاوِلًا أَنْ يُفْلِتَ مِنْ يَدِهِ ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا ، فَذَهَبَ مَعَهُ خَائِفًا يَتَوَقَّعُ الشَّرَّ .

فِي حَضْرَةِ السِّنْدِبَادِ

وَسَارَ الْحَمَّالُ مَعَهُ حَتَّى بَلَغَ غُرْفَةً فَخْمَةً ، فِي وَسَطِهَا مَائِدَةٌ

حوَتْ مَا لَذَّ مِنْ أَطْيَبِ ٱلْأَطْعِمَةِ وَٱلْأَشْرِبَةِ وَٱلْفَاكِهَةِ وَٱلنُّقْلِ ، وَرَأَى جَمَاعَةً مِنْ سَرَاةِ ٱلْقَوْمِ ، كَمَا رَأَى فِي صَدْرِ ٱلْمَجْلِسِ رَجُلًا حَسَنَ ٱلصُّورَةِ جَلِيلَ ٱلْقَــدْرِ مَهِيبَ ٱلطَّلْعَةِ وَقَدْ بَدَا فِي لِحْيَتِهِ ٱلشَّيْبُ ، فَعَرَفَ أَنَّهُ « ٱلسِّنْدِبَادُ » صَاحِبُ ٱلْقَصْرِ ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ — وَهُوَ مُنَكِّسٌ رَأْسَهُ مِنْ شِدَّةِ ٱلْخَجَلِ — فَهَشَّ إِلَيْهِ « ٱلسِّنْدِبَادُ » وَقَرَّبَهُ مِنْهُ حَتَّى أَذْهَبَ عَنْهُ خَوْفَهُ ، وَدَعَاهُ إِلَى ٱلطَّعَامِ فَأَكَلَ حَتَّى شَبِعَ .

فَسَأَلَهُ « ٱلسِّنْدِبَادُ ٱلْبَحْرِيُّ » عَنِ ٱسْمِهِ وَصِنَاعَتِهِ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : « أَعِدْ عَلَيَّ ٱلْآنَ مَا كُنْتَ تَقُولُهُ — مُنْذُ زَمَنٍ يَسِيرٍ — تَحْتَ ٱلْقَصْرِ ! »

* * *

هُنَالِكَ ٱرْتَبَكَ « ٱلْهِنْدِبَادُ » ٱلْحَمَّالُ وَبَدَتْ عَلَيْهِ دَلَائِلُ ٱلْحَيْرَةِ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ :

« مَعْذِرَةً يَا سَيِّدِي ، فَقَدْ دَفَعَنِي مَا أُعَانِيهِ مِنَ ٱلْفَقْرِ ، وَمَا أُكَابِدُهُ مِنَ ٱلْمَتَاعِبِ ، إِلَى ٱلتَّفَوُّهِ بِمَا قُلْتُ ، فَتَجَاوَزْ عَنْ إِسَاءَتِي وَلَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا فَرَطَ مِنِّي ! »

فَقَالَ لَهُ « ٱلسِّنْدِبَادُ » :

« إِنِّي لَا أُرِيدُ أَنْ أُؤَاخِذَكَ بِشَيْءٍ مِمَّا قُلْتَ ، وَإِنَّمَا أَشْفَقْتُ عَلَيْكَ وَرَثَيْتُ لَكَ ، وَقَدْ صِرْتَ لِي — مُنْذُ ٱلْيَوْمِ — أَخًا وَصَدِيقًا ،

وَلَـكِنَّنِي أُرِيدُ أَنْ أُبَيِّنَ لَكَ حَقِيقَةً غَابَتْ عَنْكَ ، وَأُزِيلَ مَا عَلِقَ بِذِهْنِكَ مِنَ الْوَهْمِ ، فَقَدْ ظَنَنْتَ أَنَّ هٰذِهِ الثَّرْوَةَ الطَّائِلَةَ قَدْ جَاءَتْنِي دُونَ مَشَقَّةٍ أَوْ عَنَاءٍ ، مَعَ أَنِّي لَمْ أَحْصُلْ عَلَيْهَا إِلَّا بَعْدَ أَنْ قَاسَيْتُ مِنَ الْمَصَاعِبِ وَلَاقَيْتُ مِنَ الْأَهْوَالِ مَا يَعْجِزُ عَنْهُ الْوَصْفُ .

*
* *

وَسَأَقُصُّ عَلَيْكَ مَا حَدَثَ لِي فِي أَسْفَارِي السَّبْعَةِ ، وَمَا تَعَرَّضْتُ لَهُ مِنَ الْمَهَالِكِ وَالْمَخَاطِرِ الَّتِي تَشِيبُ مِنْ هَوْلِهَا الْوِلْدَانُ ، لِتُدْرِكَ بِنَفْسِكَ مِقْدَارَ مَا عَانَيْتُ مِنَ الْمَتَاعِبِ حَتَّى وَصَلْتُ إِلَى هٰـذِهِ السَّعَادَةِ الَّتِي تَرَاهَا وَتَعْجَبُ مِنْهَا .

أسئـلة

أتينا بهذه الأسئلة لتكون نموذجا لحضرات المدرسين ينسجون على منواله فيما يلي :

(١) ما اسم الحمال ؟ (٢) فى أى بلد كان يقيم ؟
(٣) فى زمن أى خليفة ؟ (٤) ما اسم صاحب القصر ؟
(٥) ماذا قال الخادم حين سأله الحمال عن اسم صاحب القصر ؟
(٦) ماذا قال الحمال حين رأى فخامة القصر وجمال الحديقة ؟
(٧) ماذا رأى الحمال فى غرفة السندباد ؟
(٨) كيف سلم عليه الحمال ؟ (٩) كيف قابله السندباد ؟
(١٠) هل وصل السندباد الى هذه الثروة الطائلة بلا عناء ؟
(١١) من الذى ظن ذلك ؟ (١٢) ومن الذى بين هذا الخطأ ؟
(١٣) اكتب خلاصة وجيزة لهذه القصة .

على ظهر حوت

١ – السِّنْدِبادُ بَعْدَ وَفاةِ أبيه

كَانَ أَبِي مِنْ كِبَارِ تُجَّارِ « بَغْدَادَ »، فَلَمَّا مَاتَ تَرَكَ لِي ثَرْوَةً طَائِلَةً – وَكُنْتُ حِينَئِذٍ شَابًّا طَائِشًا – فَأَخَذْتُ أُنْفِقُ عَلَى نَفْسِي وَعَلَى أَصْحَابِي – عَنْ سَعَةٍ – مِنْ هَذَا الْمَالِ الَّذِي لَمْ أَتَكَبَّدْ فِي جَمْعِهِ أَيَّ عَنَاءٍ، وَظَلِلْتُ عَلَى ذَلِكَ مُدَّةً طَوِيلَةً مِنَ الزَّمَنِ، دُونَ أَنْ أَتَدَبَّرَ عَوَاقِبَ هَذَا الْإِسْرَافِ.

ثُمَّ انْتَبَهْتُ مِنْ غَفْلَتِي – ذَاتَ يَوْمٍ – فَرَأَيْتُ مَالِي لَمْ يَبْقَ مِنْهُ إِلاَّ الْقَلِيلُ، وَعَلِمْتُ أَنِّي – إِذَا ظَلِلْتُ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ – ضَاعَ كُلُّ مَا أَمْلِكُ، وَكَانَ عَاقِبَتِي الْإِفْلاسُ وَالْخَرَابُ. وَرُبَّمَا اضْطُرِرْتُ إِلَى سُؤَالِ النَّاسِ. فَجَزِعْتُ مِنْ هَذِهِ الْعَاقِبَةِ السَّيِّئَةِ، وَقُلْتُ لِنَفْسِي: « إِنَّ الْفَقْرَ – فِي آخِرِ أَيَّامِ الْإِنْسَانِ – وَاحْتِمَالَ ذُلِّ السُّؤَالِ، مِمَّا لاَ تَرْضَاهُ نَفْسُ الْكَرِيمِ، وَإِنَّ الْكَسَلَ مِفْتَاحُ الْفَقْرِ » وَذَكَرْتُ تِلْكَ الْحِكْمَةَ الصَّادِقَةَ الَّتِي يَقُولُهَا النَّاسُ:

« مَنْ لَمْ يَرْكَبِ الْأَهْوَالَ لَمْ يَنَلِ الرَّغَائِبَ »

فعزَمْتُ عَلَى السَّفَرِ ، وَبِعْتُ كُلَّ مَا بَقِيَ لَدَيَّ مِنْ مَتَاعٍ ، وَاشْتَرَيْتُ بِثَمَنِهِ بَضَائِعَ أَتَّجِرُ فِيهَا ، وَسَافَرْتُ - مَعَ جَمَاعَةٍ مِنَ التُّجَّارِ - مِنْ مَدِينَةِ « بَغْدَادَ » حَتَّى وَصَلْنَا إِلَى مَدِينَةِ « الْبَصْرَةِ » حَيْثُ أَقْلَعَتْ بِنَا سَفِينَةٌ كَبِيرَةٌ ، وَسَارَتْ فِي طَرِيقِ الْخَلِيجِ الْفَارِسِيِّ .

٢ - دُوَارُ الْبَحْرِ

وَكَانَتْ هَذِهِ هِيَ أَوَّلَ رِحْلَةٍ لِي ، فَلَمْ أَكَدْ أَرْكَبُ الْبَحْرَ حَتَّى أَعْتَرَانِي دُوَارٌ أَفَقْتُ مِنْهُ بَعْدَ قَلِيلٍ مِنَ الزَّمَنِ ، ثُمَّ أَلِفْتُ هَوَاءَ الْبَحْرِ - بَعْدَ ذَلِكَ - وَعَادَتْ إِلَيَّ صِحَّتِي .

وَظَلَّتِ السَّفِينَةُ سَائِرَةً بِنَا مِنْ جَزِيرَةٍ إِلَى جَزِيرَةٍ ، وَمِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ ، وَنَحْنُ نَبِيعُ وَنَشْتَرِي فِي كُلِّ مَكَانٍ حَلَلْنَا بِهِ .

٣ - عَلَى ظَهْرِ حُوتٍ

وَبَيْنَمَا نَحْنُ سَائِرُونَ فِي عُرْضِ الْبَحْرِ ، إِذْ لَاحَتْ لَنَا جَزِيرَةٌ صَغِيرَةٌ مُرْتَفِعَةٌ عَنْ سَطْحِ الْمَاءِ فَاقْتَرَبْنَا مِنْهَا ، وَنَزَلَ بِهَا بَعْضُ التُّجَّارِ - وَنَزَلْتُ مَعَهُمْ - وَبَقِينَا عَلَى هَذِهِ الْجَزِيرَةِ زَمَنًا وَنَحْنُ نَلْهُو وَنَلْعَبُ حَتَّى جَاءَ وَقْتُ الْغَدَاءِ ، فَأَتَيْنَا بِخَشَبٍ مِنَ السَّفِينَةِ وَأَوْقَدْنَا بِهَا النَّارَ لِنَطْبُخَ عَلَيْهَا طَعَامَنَا ، وَلَمْ نَكَدْ نُوقِدُ النَّارَ

حَتَّى اهْتَزَّتْ بِنَا الْجَزِيرَةُ اهْتِزَازاً عَنِيفاً ، فَصَرَخْنَا مِنَ الْفَزَعِ وَالرُّعْبِ وَصَاحَ بِنَا رُبَّانُ السَّفِينَةِ :

« أَنْجُوا بِأَنْفُسِكُمْ قَبْلَ أَنْ يَحُلَّ بِكُمُ الْهَلَاكُ ! »

وَلَمْ يَكَدْ يُتِمُّ قَوْلَهُ حَتَّى غَاصَتِ الْجَزِيرَةُ كُلُّهَا فِي الْبَحْرِ مَرَّةً وَاحِدَةً ، فَأَسْرَعَ إِلَى السَّفِينَةِ مَنْ كَانَ قَرِيباً مِنْهَا فَنَجَا وَغَرِقَ الْبَاقُونَ .

٤ – حَقِيقَةُ الْجَزِيرَةِ

وَلَمْ تَكُنْ هَذِهِ جَزِيرَةً – كَمَا حَسِبْنَا – بَلْ حُوتاً هَائِلاً مِنْ حِيتَانِ الْبَحْرِ كَانَ نَائِماً عَلَى سَطْحِ الْمَاءِ ، فَلَمَّا أَوْقَدْنَا عَلَيْهِ النَّارَ أَحَسَّ الْحَرَارَةَ فَاسْتَيْقَظَ مِنْ نَوْمِهِ وَغَاصَ فِي الْبَحْرِ ، فَنَجَا مَنْ نَجَا وَغَرِقَ مَنْ غَرِقَ .

٥ – كَيْفَ نَجَوْتُ مِنَ الْغَرَقِ

أَمَّا أَنَا فَكُنْتُ بَعِيداً عَنِ السَّفِينَةِ فَلَمْ أَتَمَكَّنْ مِنَ الْوُصُولِ إِلَيْهَا وَقَدْ كِدْتُ أَغْرَقُ لَوْ لَمْ أَتَعَلَّقْ بِلَوْحٍ مِنَ الْخَشَبِ الَّذِي أَتَيْنَا بِهِ مِنَ السَّفِينَةِ لِلْوَقُودِ ، وَنَادَيْتُ مَنْ فِي السَّفِينَةِ بِأَعْلَى صَوْتِي فَلَمْ يَسْمَعْنِي أَحَدٌ لِشِدَّةِ مَا لَحِقَهُمْ مِنَ الرُّعْبِ .

وَرَأَيْتُ السَّفِينَةَ تَخْتَفِي عَنْ نَاظِرِي ، وَقَدْ أَصْبَحْتُ تَحْتَ رَحْمَةِ الْأَمْوَاجِ الْهَائِجَةِ ، وَالْغَرَقُ يُهَدِّدُنِي فِي كُلِّ لَحْظَةٍ .

وَلَمَّا أَظْلَمَ ٱللَّيْلُ أَيْقَنْتُ بِالْهَلَاكِ ، وَلٰكِنَّنِي لَمْ أَيْأَسْ رَغْمَ مَا حَلَّ بِي مِنَ التَّعَبِ وَٱلْخَوْفِ ، وَبَقِيتُ عَلَى هٰذِهِ ٱلْحَالِ طُولَ اللَّيْلِ ، حَتَّى إِذَا أَصْبَحَ الصَّبَاحُ قَذَفَتْنِي ٱلْأَمْوَاجُ إِلَى شَاطِئِ جَزِيرَةٍ عَالِيَةٍ فِيهَا أَشْجَارٌ مُطِلَّةٌ عَلَى ٱلْبَحْرِ ، وَقَدْ وَجَدْتُ — لِحُسْنِ حَظِّي —

فَرْعَ شَجَرَةٍ مُتَدَلِّيًا ، فَتَعَلَّقْتُ بِهِ وَتَمَكَّنْتُ بِذَلِكَ مِنَ الصُّعُودِ إِلَى ٱلْجَزِيرَةِ بَعْدَ تَعَبٍ شَدِيدٍ .

وَلَمْ أَكَدْ أَصْعَدُ إِلَيْهَا حَتَّى ٱرْتَمَيْتُ عَلَى أَرْضِهَا — وَأَنَا مَنْهُوكُ ٱلْقُوَى مِنْ شِدَّةِ مَا لَقِيتُ — وَبَقِيتُ نَائِمًا طُولَ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ ، ثُمَّ أَفَقْتُ

مِنْ نَوْمِي فِي صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِي ، وَكَانَتْ قَدَمَايَ قَدْ وَرِمَتَا وَلَـكِنَّنِي لَمْ أَعْبَأْ بِذَلِكَ ، فَمَشَيْتُ مُتَوَكِّئًا عَلَى عَصًا قَطَعْتُهَا مِنْ غُصْنِ شَجَرَةٍ ، وَسِرْتُ أَبْحَثُ عَنْ طَعَامٍ آكُلُهُ وَقَدْ كَادَ يُهْلِكُنِي الْجُوعُ .

* * *

عَلَى أَنَّنِي وَجَدْتُ فِي تِلْكَ الْجَزِيرَةِ كَثِيرًا مِنَ الْبُقُولِ النَّاضِجَةِ وَرَأَيْتُ فِيهَا عَيْنًا مِنَ الْمَاءِ الْعَذْبِ ، فَفَرِحْتُ بِذَلِكَ فَرَحًا شَدِيدًا ، وَأَكَلْتُ حَتَّى شَبِعْتُ ، وَشَرِبْتُ حَتَّى ارْتَوَيْتُ !

٦ — خَدَمُ الْمَهْرَاجَا

وَبَعْدَ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ زَالَ مَا بِي مِنْ ضَعْفٍ ، وَعَادَ إِلَيَّ نَشَاطِي الْأَوَّلُ فَرُحْتُ أَمْشِي فِي الْجَزِيرَةِ ، وَبَيْنَمَا أَنَا كَذَلِكَ ، إِذْ لَاحَ لِي شَبَحٌ مِنْ بَعِيدٍ ، فَسِرْتُ إِلَيْهِ حَتَّى اقْتَرَبْتُ مِنْهُ فَإِذَا بِهِ فَرَسٌ تَرْعَى الْعُشْبَ — وَهِيَ مُقَيَّدَةٌ — وَسَمِعْتُ أَصْوَاتَ رِجَالٍ يَتَحَدَّثُونَ فِي سِرْدَابٍ تَحْتَ الْأَرْضِ فَدُهِشْتُ لِذَلِكَ ، وَإِنِّي لَفِي دَهْشَتِي إِذْ أَقْبَلَ عَلَيَّ رَجُلٌ لَا أَعْرِفُهُ ، فَسَأَلَنِي عَنْ سَبَبِ مَجِيئِي إِلَى هَذَا الْمَكَانِ ، فَأَخْبَرْتُهُ بِقِصَّتِي فَدُهِشَ لَهَا ، وَذَهَبَ بِي إِلَى السِّرْدَابِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ ، فَرَأَيْتُ جَمَاعَةً يَنْتَظِرُونَهُ فِيهِ ، فَقَصَصْتُ عَلَيْهِمْ قِصَّتِي ، وَقَدَّمُوا إِلَيَّ طَعَامًا وَشَرَابًا فَأَكَلْتُ وَشَرِبْتُ . ثُمَّ سَأَلْتُهُمْ عَنْ سَبَبِ مَجِيئِهِمْ إِلَى

هَذِهِ ٱلْجَزِيرَةِ وَاخْتِفَائِهِمْ فِي هَذَا السِّرْدَابِ ، فَأَخْبَرُونِي أَنَّهُمْ خَدَمُ ٱلْمَلِكِ « ٱلْمِهْرَاجَا » صَاحِبِ هَذِهِ ٱلْجَزِيرَةِ ، وَأَنَّهُ يُوفِدُهُمْ — فِي مِثْلِ

هَذَا ٱلْوَقْتِ مِنْ كُلِّ عَامٍ — وَمَعَهُمْ بَعْضُ أَفْرَاسِهِ لِتَرْعَى فِي هَذِهِ ٱلْجَزِيرَةِ ، حَتَّى يَخْرُجَ إِلَيْهَا حِصَانُ ٱلْبَحْرِ فَتَحْمِلَ مِنْهُ ، فَإِذَا حَاوَلَ أَخْذَهَا مَعَهُ ، خَرَجُوا عَلَيْهِ مِنَ السِّرْدَابِ فَيَفِرُّ مِنْهُمْ هَارِبًا إِلَى ٱلْبَحْرِ ، ثُمَّ يَعُودُونَ بِهَا إِلَى بِلَادِهِمْ حَيْثُ تَلِدُ مُهْرًا أَصِيلًا عَدِيمَ ٱلْمِثَالِ !

٧ — حِصَانُ ٱلْبَحْرِ

وَهُنَا سَمِعْنَا صُرَاخَ حِصَانِ ٱلْبَحْرِ ، فَنَظَرْنَا مِنْ ثُقْبِ السِّرْدَابِ ،

فَرَأَيْنَاهُ يُحَاوِلُ أَخْذَ الْفَرَسِ مَعَهُ بِقُوَّةٍ ، فَطَلَعَ عَلَيْهِ الرِّجَالُ مِنَ السِّرْدَابِ ، فَلَمَّا رَآهُمْ وَلَّى هَارِباً إِلَى الْبَحْرِ .

٨ – فِي حَضْرَةِ الْمَهْرَاجَا

وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي أَرْكَبُونِي مَعَهُمْ ، وَمَا زِلْنَا سَائِرِينَ حَتَّى وَصَلْنَا إِلَى بِلَادِ الْهِنْدِ حَيْثُ قَدَّمُونِي إِلَى مَلِكِهِمْ « الْمَهْرَاجَا » فَسَأَلَنِي عَنْ قِصَّتِي فَأَخْبَرْتُهُ بِكُلِّ مَا حَدَثَ لِي ، فَدَهِشَ لِذَلِكَ أَشَدَّ دَهْشَةٍ ، وَسُرَّ بِي سُرُوراً عَظِيماً ، وَأَكْرَمَنِي وَقَرَّبَنِي إِلَيْهِ .

٩ – عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ

وَكَانَ لِهَذَا الْبَلَدِ مَرْفَأٌ تَرْسُو عَلَيْهِ السُّفُنُ التِّجَارِيَّةُ كُلَّ يَوْمٍ مِنْ مُخْتَلِفِ بِلَادِ الدُّنْيَا ، فَكُنْتُ أُكْثِرُ مِنَ التَّرَدُّدِ عَلَيْهِ مُسَائِلاً الْوَافِدِينَ عَنْ أَخْبَارِ « بَغْدَادَ » دُونَ أَنْ أَظْفَرَ مِنْهُمْ بِطَائِلٍ ، وَمَضَى عَلَى ذَلِكَ زَمَنٌ طَوِيلٌ ، فَمَلِلْتُ الْغُرْبَةَ وَاشْتَاقَتْ نَفْسِي إِلَى رُؤْيَةِ وَطَنِي وَأَهْلِي .

١٠ – عَجَائِبُ الْهِنْدِ

وَكُنْتُ أَخْرُجُ أَحْيَاناً إِلَى بَعْضِ الْجُزُرِ الْقَرِيبَةِ فَأَرَى فِيهَا عَجَائِبَ وَغَرَائِبَ كَثِيرَةً .

وَمِنْ أَعْجَبِ مَا رَأَيْتُهُ سَمَكٌ كَبِيرٌ يَبْلُغُ طُولُهُ مِائَةَ ذِرَاعٍ إِلَى مِائَتَيْنِ، وَلَهُ وَجْهٌ كَوَجْهِ الْبُومِ، وَقَدْ نَفَرْتُ مِنْهُ كَمَا نَفَرَ مِنِّي، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ ارْتَاعَ مِنْ رُؤْيَتِي كَمَا ارْتَعْتُ مِنْ رُؤْيَتِهِ.

١١ — اللِّقَاءُ بَعْدَ الْيَأْسِ

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ خَرَجْتُ كَعَادَتِي إِلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ، فَرَأَيْتُ سَفِينَةً مُقْبِلَةً، وَلَمَّا رَسَتْ عَلَى الشَّاطِئِ وَأَنْزَلَتْ مَا بِهَا مِنَ الْبَضَائِعِ رَأَيْتُ عَلَى بَعْضِ أَحْمَالِهَا اسْمَ «السِّنْدِبَادِ» فَلَمَّا أَنْعَمْتُ النَّظَرَ فِي رُبَّانِهَا عَرَفْتُهُ، وَسَأَلْتُهُ عَنْ صَاحِبِ هَذِهِ الْأَحْمَالِ فَأَجَابَنِي مُتَأَثِّرًا حَزِينًا:

«وَا أَسَفَا عَلَيْهِ! إِنَّهُ «السِّنْدِبَادُ» وَقَدْ غَرِقَ أَثْنَاءَ سَفَرِنَا، وَكَانَ سَبَبُ غَرَقِهِ أَنَّهُ طَلَعَ — مَعَ بَعْضِ رِفَاقِهِ مِنَ التُّجَّارِ — عَلَى ظَهْرِ حُوتٍ كَبِيرٍ، كُنَّا نَحْسَبُهُ جَزِيرَةً، فَلَمَّا غَاصَ الْحُوتُ غَرِقُوا وَلَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ كَانَ قَرِيبًا مِنَ الْمَرْكَبِ، رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِمْ جَمِيعًا. وَقَدْ أَخَذْتُ

عَلَى نَفْسِي أَنْ أَبِيعَ بَضَائِعَهُ وَأُعْطِيَ أَهْلَهُ ثَمَنَهَا مَتَى عُدْتُ إِلَى «بَغْدَادَ»
فَقُلْتُ لِرُبَّانِ السَّفِينَةِ : « أَنَا السِّنْدِبَادُ الَّذِي تَذْكُرُهُ وَهَذِهِ بِضَاعَتِي ! »
فَصَاحَ الرُّبَّانُ فِي وَجْهِي صَيْحَةً عَظِيمَةً ، وَقَالَ لِي غَاضِبًا :

« أَمَا وَاللهِ لَقَدْ فَسَدَتِ الذِّمَمُ وَضَاعَتِ الْأَمَانَةُ مِنَ النَّاسِ ! كَيْفَ تَدَّعِي أَنَّكَ « السِّنْدِبَادُ » وَقَدْ رَأَيْتُهُ بِعَيْنِي وَهُوَ يَغْرَقُ فِي الْبَحْرِ ؟ »

فَقُلْتُ لَهُ : « لَا تَغْضَبْ عَلَيَّ ، وَلَا تَعْجَلْ بِتَكْذِيبِ مَا أَقُولُ . »

***

ثُمَّ قَصَصْتُ عَلَيْهِ كُلَّ مَا حَدَثَ لِي ، وَذَكَرْتُ لَهُ جَمِيعَ مَا دَارَ بَيْنَنَا مِنَ الْكَلَامِ — مُنْذُ خَرَجْنَا مِنَ «الْبَصْرَةِ» إِلَى أَنْ غَاصَ بِنَا الْحُوتُ — فَظَهَرَ لَهُ صِدْقُ قَوْلِي ، وَفَرِحَ بِنَجَاتِي فَرَحًا شَدِيدًا وَعَانَقَنِي ، وَأَقْبَلَ عَلَيَّ رِفَاقِي يُهَنِّئُونَنِي بِسَلَامَتِي وَنَجَاتِي مِنَ الْغَرَقِ . ثُمَّ شَكَرْتُ لِلرُّبَّانِ أَمَانَتَهُ وَأَرَدْتُ أَنْ أُكَافِئَهُ عَلَى صَنِيعِهِ فَرَفَضَ وَلَمْ يَقْبَلْ مِنِّي شَيْئًا .

١٢ — الْعَوْدَةُ إِلَى الْوَطَنِ

فَتَخَيَّرْتُ هَدِيَّةً نَفِيسَةً قَدَّمْتُهَا إِلَى « الْمَهْرَاجَا » فَسَأَلَنِي : « مِنْ أَيْنَ أَحْضَرْتَهَا ؟ » فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا حَدَثَ ، فَتَبَيَّنَ لَهُ صِدْقُ كَلَامِي وَقَبِلَ هَدِيَّتِي مَسْرُورًا ، ثُمَّ أَمَرَ لِي بِهَدِيَّةٍ ثَمِينَةٍ .

وَلَمَّا ٱسْتَأْذَنْتُهُ فِي السَّفَرِ أَذِنَ لِي – بَعْدَ أَنْ أَظْهَرَ لِي أَسَفَهُ عَلَى فِرَاقِي – فَخَرَجْتُ مِنْ عِنْدِهِ شَاكِراً ، وَبِعْتُ فِي بَلَدِهِ كُلَّ مَا مَعِي مِنَ ٱلْبَضَائِعِ بِأَغْلَى ثَمَنٍ ، وَاشْتَرَيْتُ بَدَلَهَا بَضَائِعَ أُخْرَى .

وَعُدْتُ إِلَى بِلَادِي بِأَمْوَالٍ كَثِيرَةٍ ، بَعْدَ أَنْ سَارَ بِنَا ٱلْمَرْكَبُ آمِناً ، وَكَانَ ٱلْبَحْرُ هَادِئاً وَالرِّيحُ طَيِّبَةً فَلَمْ نَلْقَ أَيَّ عَنَاءٍ فِي سَفَرِنَا حَتَّى بَلَغْنَا « ٱلْبَصْرَةَ » .

١٣ — فِي بَغْدَادَ

ثُمَّ ذَهَبْنَا مِنَ « ٱلْبَصْرَةِ » إِلَى « بَغْدَادَ » حَيْثُ لَقِيَنِي أَهْلِي فَرِحِينَ بِعَوْدَتِي سَالِماً ، وَاشْتَرَيْتُ قُصُوراً فَخْمَةً وَعَبِيداً وَغِلْمَاناً كَثِيرِينَ ، وَأَصْبَحْتُ مِنْ أَكْبَرِ أَغْنِيَاءِ « بَغْدَادَ » ، وَتَصَدَّقْتُ عَلَى ٱلْفُقَرَاءِ وَٱلْمَسَاكِينِ ، وَعَزَمْتُ عَلَى ٱلْإِقَامَةِ فِي بَلَدِي بَعِيداً عَنْ مَشَقَّاتِ ٱلسَّفَرِ وَأَهْوَالِ ٱلْبَحْرِ ، وَأَنْسَتْنِي رَاحَةُ ٱلْبَالِ مَا قَاسَيْتُهُ مِنَ ٱلْمَتَاعِبِ وَٱلْأَهْوَالِ .

١٤ — دَهْشَةُ ٱلْحَاضِرِينَ

وَلَمَّا ٱنْتَهَى « السِّنْدِبَادُ » مِنْ كَلَامِهِ ، ٱلْتَفَتَ إِلَى « ٱلْهِنْدِبَادِ » ٱلْحَمَّالِ وَقَالَ لَهُ مُبْتَسِماً : « هَـٰذَا مَا حَدَثَ لِي فِي الرِّحْلَةِ ٱلْأُولَى

وَسَأُخْبِرُكَ غَدًا بِمَا حَدَثَ لِي فِي رِحْلَتِي الثَّانِيَةِ ، وَمَا رَأَيْتُهُ فِيهَا مِنَ الْعَجَائِبِ ! »

*
* *

فَدُهِشَ « الْهِنْدِبَادُ الْحَمَّالُ » وَعَجِبَ جَمِيعُ الْحَاضِرِينَ مِمَّا سَمِعُوا.

ثُمَّ أَمَرَ « السِّنْدِبَادُ » بِمِائَةِ دِينَارٍ لِلْحَمَّالِ وَكَسَاهُ حُلَّةً نَفِيسَةً ، فَدَعَا لَهُ وَخَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ شَاكِرًا مَسْرُورًا ، وَخَرَجَ مَعَهُ جَمِيعُ الْحَاضِرِينَ عَلَى أَنْ يَعُودُوا إِلَى « السِّنْدِبَادِ » فِي الْغَدِ.

وَلَمَّا حَضَرُوا فِي الْيَوْمِ التَّالِي بَدَأَ « السِّنْدِبَادُ » يَقُصُّ عَلَيْهِمْ رِحْلَتَهُ الثَّانِيَةَ فَقَالَ :

فى وادى الأفاعى

١ – كَيْفَ نَسِيَنِي رِفَاقِي

حَدَّثْتُكُمْ أَمْسِ أَنَّنِي عَزَمْتُ عَلَى الْإِقَامَةِ فِي « بَغْدَادَ » طُولَ حَيَاتِي هَادِئَ الْبَالِ حَتَّى لاَ أُعَرِّضَ نَفْسِي مَرَّةً أُخْرَى لِمَخَاطِرِ السَّفَرِ وَمَخَاوِفِهِ ، وَلَكِنَّنِي – بَعْدَ قَلِيلٍ مِنَ الزَّمَنِ – ضَجِرْتُ بِهَذِهِ الْحَيَاةِ الْهَادِئَةِ ، وَمَلِلْتُ عِيشَةَ الْكَسَلِ ، وَاشْتَقْتُ إِلَى
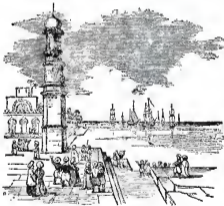
السَّفَرِ وَرُكُوبِ الْبَحْرِ ، فَاشْتَرَيْتُ بَضَائِعَ كَثِيرَةً ، وَسَافَرْتُ مِنْ « بَغْدَادَ » إِلَى « الْبَصْرَةِ » حَيْثُ أَبْحَرْتُ مَعَ جَمَاعَةٍ مِنَ

التُّجَّار وَسَارَتْ بِنَا السَّفِينَةُ مِنْ جَزِيرَةٍ إِلَى جَزِيرَةٍ وَمِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ، وَكَانَتْ تِجَارَتُنَا رَابِحَةً حَتَّى بَلَغْنَا جَزِيرَةً كَبِيرَةً، جَمِيلَةَ الْمَنْظَرِ، فِيهَا كَثِيرٌ مِنَ الْأَشْجَارِ وَالْفَاكِهَةِ تَتَخَلَّلُهَا الْجَدَاوِلُ وَالْأَنْهَارُ

*
* *

فَنَزَلْنَا بِهَا فَلَمْ نَجِدْ فِيهَا أَحَداً مِنَ النَّاسِ، فَأَكَلْنَا مِنْ فَاكِهَتِهَا وَشَرِبْنَا مِنْ مَائِهَا الْعَذْبِ، ثُمَّ ذَهَبَ أَصْحَابِي يَجُولُونَ فِي الْجَزِيرَةِ وَجَلَسْتُ مُنْفَرِداً فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ كَبِيرَةٍ، وَأَمَامِي جَدْوَلٌ مِنَ الْمَاءِ عَلَى جَانِبَيْهِ الْأَزْهَارُ، فَأَخَذَتْنِي سِنَةٌ مِنَ النَّوْمِ — وَلَمْ أَعْلَمْ كَمْ سَاعَةً نِمْتُ — وَمَا كِدْتُ أَسْتَيْقِظُ حَتَّى تَمَلَّكَنِي الرُّعْبُ وَالْفَزَعُ، فَقَدْ بَحَثْتُ عَنْ رِفَاقِي فَلَمْ أَعْثُرْ لَهُمْ عَلَى أَثَرٍ!

*
* *

هُنَالِكَ عَلِمْتُ أَنَّ السَّفِينَةَ قَدْ أَقْلَعَتْ بِهِمْ دُونَ أَنْ يَنْتَبِهَ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَى غِيَابِي، فَأَسْرَعْتُ إِلَى الشَّاطِئِ — وَأَنَا كَالْمَجْنُونِ لِشِدَّةِ مَا لَحِقَنِي مِنَ الْجَزَعِ وَالْيَأْسِ — وَرَأَيْتُ السَّفِينَةَ تَغِيبُ عَنْ نَاظِرِي شَيْئاً فَشَيْئاً حَتَّى اخْتَفَتْ، فَصَرَخْتُ مِنَ الْأَلَمِ وَتَمَلَّكَنِي الْيَأْسُ وَالْفَزَعُ فَوَقَعْتُ عَلَى الْأَرْضِ مَغْشِيّاً عَلَيَّ، وَبَقِيتُ كَذَلِكَ زَمَناً طَوِيلاً، وَلَمَّا أَفَقْتُ أَخَذْتُ أَلُومُ نَفْسِي عَلَى هَذِهِ الرِّحْلَةِ الْمَشْؤُومَةِ أَشَدَّ اللَّوْمِ وَأَنْدَمُ عَلَى سَفَرِي أَشَدَّ النَّدَمِ حَيْثُ لَا يَنْفَعُ لَوْمٌ وَلَا نَدَمٌ!

٢ ـ بَيْضَةُ ٱلرُّخِّ

وَتَلَفَّتُّ حَوْلِي فَلَمْ أَجِدْ أَحَدًا ، فَتَسَلَّقْتُ شَجَرَةً عَالِيَةً وَرَمَيْتُ بِبَصَرِي فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ مِنْ نَوَاحِي ٱلْبَحْرِ ، فَلَمْ أَرَ شَيْئًا غَيْرَ ٱلْمَاءِ وَٱلسَّمَاءِ ، وَدُرْتُ بِبَصَرِي فِي ٱلْجَزِيرَةِ ، فَرَأَيْتُ – عَلَى بُعْدٍ – قُبَّةً بَيْضَاءَ عَالِيَةً تَلْمَعُ لَمَعَانًا شَدِيدًا فِي ضَوْءِ ٱلشَّمْسِ ، فَنَزَلْتُ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ ، وَجَرَيْتُ إِلَيْهَا بِكُلِّ قُوَّتِي حَتَّى دَنَوْتُ مِنْهَا فَرَأَيْتُهَا شَاهِقَةً ، فَلَمَسْتُهَا بِيَدِي فَإِذَا هِيَ مَلْسَاءُ لَا يُمْكِنُ ٱلصُّعُودُ عَلَيْهَا ، وَدُرْتُ حَوْلَهَا فَلَمْ أَرَ لَهَا بَابًا وَلَا مَنْفَذًا ، فَلَمَّا قِسْتُ دَائِرَتَهَا وَجَدْتُهَا خَمْسِينَ خُطْوَةً .

٣ ـ طَيْرُ ٱلرُّخِّ

وَبَيْنَمَا أَنَا أَتَأَمَّلُهَا إِذْ وَجَدْتُ ٱلدُّنْيَا قَدْ أَظْلَمَتْ ، وَأَقْبَلَ عَلَيَّ سَوَادٌ عَظِيمٌ حَجَبَ عَنِّي ضَوْءَ ٱلشَّمْسِ ، فَتَأَمَّلْتُهُ فَإِذَا هُوَ طَائِرٌ عَظِيمُ ٱلْجِسْمِ ، فَذَكَرْتُ لِلْحَالِ مَا كُنْتُ أَسْمَعُهُ مِنَ ٱلْمُسَافِرِينَ وَٱلتُّجَّارِ عَنْ طَيْرِ ٱلرُّخِّ ، وَأَدْرَكْتُ أَنَّ هٰذِهِ ٱلْقُبَّةَ ٱلْكَبِيرَةَ هِيَ بَيْضَتُهُ ، وَلَمْ يَكَدْ يَنْزِلُ طَيْرُ ٱلرُّخِّ حَتَّى جَلَسَ عَلَى بَيْضَتِهِ فَاحْتَضَنَهَا بِجَنَاحَيْهِ وَنَامَ فَوْقَهَا ، فَنَظَرْتُ إِلَى مِخْلَبِهِ فَرَأَيْتُهُ – لِعِظَمِهِ – كَأَنَّهُ جِذْعُ شَجَرَةٍ ، فَحَلَلْتُ عِمَامَتِي وَرَبَطْتُ

نَفْسِي بِإِحْدَى رِجْلَيْهِ رَبْطاً مُحْكَماً ، رَجَاءَ أَنْ يَحْمِلَنِي فِي ٱلْيَوْمِ ٱلتَّالِي إِلَى مَكَانٍ آخَرَ غَيْرِ هَـٰذِهِ ٱلْجَزِيرَةِ ٱلنَّائِيَةِ ، وَقَدْ تَحَقَّقَ ظَنِّي فَلَمْ يَكَدْ يَطْلُعُ ٱلْفَجْرُ حَتَّى طَارَ ، وَمَا زَالَ يَعْلُو فِي ٱلْفَضَاءِ حَتَّى ٱخْتَفَتِ ٱلْأَرْضُ عَنْ نَاظِرِي ، وَظَلَّ طَائِراً بِي مُدَّةً مِنَ ٱلزَّمَنِ ثُمَّ هَبَطَ بِي فَجْأَةً إِلَى ٱلْأَرْضِ فَأُغْمِيَ عَلَيَّ ، ثُمَّ أَفَقْتُ لِنَفْسِي

فَرَأَيْتُ طَيْرَ ٱلرُّخِّ قَدْ وَقَفَ عَلَى ٱلْأَرْضِ ، فَفَكَكْتُ رِبَاطِي لِلْحَالِ ، وَفَرِحْتُ بِٱلْخَلَاصِ مِنْ تِلْكَ ٱلْجَزِيرَةِ ٱلْمُقْفِرَةِ .

٤- فِي وَادِي ٱلْأَفَاعِي

وَلَـٰكِنَّ فَرَحِي لَمْ يَطُلْ ، فَقَدْ رَأَيْتُ طَيْرَ ٱلرُّخِّ ، قَدِ ٱنْقَضَّ عَلَى حَيَّةٍ كَبِيرَةٍ فَٱبْتَلَعَهَا وَطَارَ فِي ٱلْفَضَاءِ ، وَمَا زَالَ طَائِراً حَتَّى غَابَ عَنِّي .

فَنَظَرْتُ إِلَى مَا حَوْلِي ، فَنَدِمْتُ عَلَى تَرْكِ ٱلْجَزِيرَةِ وَٱلْمَجِيءِ إِلَى هَذَا ٱلْمَكَانِ ٱلَّذِي لَمْ تُكْتَبِ ٱلسَّلَامَةُ لِأَحَدٍ وَصَلَ إِلَيْهِ . فَقَدْ هَبَطَ بِي ٱلرُّخُّ — لِسُوءِ حَظِّي — إِلَى وَادٍ عَمِيقٍ تُحِيطُ بِهِ جِبَالٌ شَاهِقَةٌ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ ، وَلَيْسَ فِيهَا مَكَانٌ لِلصُّعُودِ وَلَا مَنْفَذٌ يَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْإِنْسَانُ . فَقُلْتُ لِنَفْسِي :

« إِنَّا لِلّٰهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ! كُلَّمَا نَجَوْتُ مِنْ مُصِيبَةٍ وَقَعْتُ فِي مُصِيبَةٍ شَرٍّ مِنْهَا ! »

٥ — حِجَارَةُ ٱلْمَاسِ

وَنَظَرْتُ إِلَى أَرْضِ ٱلْوَادِي ، فَرَأَيْتُ حِجَارَتَهُ مِنَ ٱلْمَاسِ ، فَفَرِحْتُ بِذَلِكَ فَرَحاً شَدِيداً ، وَلَكِنَّ فَرَحِي لَمْ يَدُمْ طَوِيلاً فَقَدْ رَأَيْتُ فِي ٱلْوَادِي كَثِيراً مِنَ ٱلْأَفَاعِي ٱلْهَائِلَةِ ٱلَّتِي تَبْتَلِعُ ٱلْفِيلَ بِسُهُولَةٍ — لِضَخَامَتِهَا وَكِبَرِ حَجْمِهَا — وَكَانَتْ هَذِهِ ٱلْأَفَاعِي — لِحُسْنِ حَظِّي — تَخْتَفِي فِي ٱلْكُهُوفِ وَٱلْمَغَارَاتِ أَثْنَاءَ ٱلنَّهَارِ خَوْفاً مِنْ طَيْرِ ٱلرُّخِّ — وَهُوَ عَدُوُّهَا ٱللَّدُودُ ٱلَّذِي يَبْتَلِعُهَا كُلَّمَا ظَهَرَتْ — فَإِذَا أَظْلَمَ ٱللَّيْلُ خَرَجَتِ ٱلْأَفَاعِي كُلُّهَا إِلَى ٱلْوَادِي .

٦ – فِي ٱلْكَهْفِ

فَمَشَيْتُ فِي ذَلِكَ ٱلْوَادِي طُولَ ٱلنَّهَارِ ، وَلَمَّا جَاءَ ٱللَّيْلُ أَسْرَعْتُ إِلَى كَهْفٍ صَغِيرٍ فَدَخَلْتُهُ وَسَدَدْتُ مَنْفَذَهُ بِحَجَرٍ كَبِيرٍ حَتَّى آمَنَ شَرَّ ٱلْأَفَاعِي ، وَأَكَلْتُ مِنَ ٱلزَّادِ ٱلْقَلِيلِ ٱلَّذِي أَحْضَرْتُهُ مَعِي مِنَ ٱلْجَزِيرَةِ ، وَحَاوَلْتُ أَنْ أَنَامَ فَلَمْ أَسْتَطِعْ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا ، فَقَدْ كُنْتُ أَسْمَعُ فَحِيحَ ٱلْأَفَاعِي – وَهِيَ تَزْحَفُ أَمَامَ ٱلْكَهْفِ – فَيَمْتَلِئُ قَلْبِي رُعْبًا ، وَمَا زِلْتُ طُولَ ٱللَّيْلِ خَائِفًا أَتَوَقَّعُ ٱلشَّرَّ .

٧ – فِي صَبَاحِ ٱلْيَوْمِ ٱلتَّالِي

وَلَمَّا طَلَعَ ٱلصَّبَاحُ ٱنْقَطَعَ فَحِيحُ ٱلْأَفَاعِي فَعَلِمْتُ أَنَّهَا قَدْ عَادَتْ إِلَى مَخَابِئِهَا وَكُهُوفِهَا فَحَمِدْتُ ٱللهَ عَلَى ذَلِكَ ، وَخَرَجْتُ

مِنَ ٱلْكَهْفِ وَمَشَيْتُ فِى ٱلْوَادِى – وَأَنَا أُفَكِّرُ فِى هَـٰذِهِ ٱلنِّهَايَةِ ٱلْمُحْزِنَةِ ٱلَّتِى وَصَلْتُ إِلَيْهَا – وَرَأَيْتُ كُلَّ مَا فِيهِ – مِنْ أَحْجَارِ ٱلْمَاسِ ٱلثَّمِينَةِ – لَا يُسَاوِى عِنْدِى شَيْئًا . وَتَمَنَّيْتُ لَوْ كَانَ فِى ذَٰلِكَ ٱلْوَادِى – بَدَلَ هَـٰذِهِ ٱلْحِجَارَةِ ٱلْكَرِيمَةِ – شَىْءٌ مِنَ ٱلطَّعَامِ أَوِ ٱلشَّرَابِ .

* * *

وَرَأَيْتُ صَخْرَةً قَرِيبَةً مِنِّى فَجَلَسْتُ عَلَيْهَا – وَأَنَا مَهْمُومٌ لَا أَمَلَ لِى فِى ٱلْخَلَاصِ – فَغَلَبَنِى ٱلنُّعَاسُ فَنِمْتُ قَلِيلًا ، ثُمَّ ٱسْتَيْقَظْتُ مَذْعُورًا خَائِفًا فَرَأَيْتُ قِطَعًا كَبِيرَةً مِنَ ٱللَّحْمِ تَتَسَاقَطُ – إِلَى جَانِبِى – عَلَى أَرْضِ ٱلْوَادِى مِنْ أَعْلَى ٱلْجَبَلِ .

٨ – كَيْفَ يَحْصُلُ ٱلتُّجَّارُ عَلَى ٱلْمَاسِ

فَذَكَرْتُ مَا كُنْتُ أَسْمَعُهُ مِنَ ٱلتُّجَّارِ عَنْ وَادِى ٱلْمَاسِ وَعَنِ ٱلطَّرِيقَةِ ٱلْعَجِيبَةِ ٱلَّتِى يَحْصُلُونَ بِهَا عَلَى أَحْجَارِهِ . وَهِىَ أَنْ يَذْبَحُوا ٱلْخِرَافَ وَيَسْلُخُوا مِنْهَا جِلْدَهَا ثُمَّ يُلْقُوا بِلَحْمِهَا ٱلطَّرِىِّ إِلَى أَرْضِ ذَٰلِكَ ٱلْوَادِى فَتَلْصَقَ بِهِ أَحْجَارُ ٱلْمَاسِ . وَتَأْتِى ٱلنُّسُورُ – بَعْدَ قَلِيلٍ مِنَ ٱلزَّمَنِ – فَتَخْطَفُهُ وَتَحْمِلُهُ إِلَى أَعْلَى ٱلْجَبَلِ ، فَيَصِيحُ بِهَا ٱلتُّجَّارُ فَتَهْرُبُ مِنْهُمْ خَائِفَةً تَارِكَةً لَهُمْ

مَا مَعَهَا مِنَ ٱللَّحْمِ ، فَيَأْخُذُ كُلٌّ مِنْهُمْ مَا عَلِقَ بِقِطْعَتِهِ مِنَ ٱلْمَاسِ تَارِكًا ٱللَّحْمَ — بَعْدَ ذَلِكَ — لِلنُّسُورِ ٱلْجَائِعَةِ .

وَقَدْ كُنْتُ قَبْلَ ٱلْيَوْمِ أَحْسَبُ هَـذَا ٱلْكَلَامَ خُرَافَةً يَرْوِيهَا ٱلنَّاسُ — عَلَى سَبِيلِ ٱلْفُكَاهَةِ وَٱلتَّسْلِيَةِ — حَتَّى رَأَيْتُهُ بِعَيْنِي حَقِيقَةً وَاقِعَةً .

٩ – كَيْفَ نَجَا ٱلسِّنْدِبَادُ مِنْ وَادِي ٱلْأَفَاعِي

فَبَدَا لِي أَمَلٌ فِي ٱلنَّجَاةِ ، وَتَخَيَّرْتُ مِنْ أَحْجَارِ ٱلْمَاسِ أَنْفَسَهَا ثُمَّ نِمْتُ عَلَى ظَهْرِي وَوَضَعْتُ فَوْقِي أَحَدَ هَذِهِ ٱلْخِرَافِ ٱلْمَذْبُوحَةِ وَأَمْسَكْتُهُ بِيَدَيَّ — بِكُلِّ قُوَّتِي — حَتَّى جَاءَتِ ٱلنُّسُورُ فَرَفَعَتْ تِلْكَ

ٱللُّحُومَ . وَجَاءَ نَسْرٌ كَبِيرٌ فَرَفَعَ ٱلذَّبِيحَةَ ٱلَّتِي كُنْتُ مُتَعَلِّقًا بِهَا ، وَلَمْ يَزَلْ طَائِرًا حَتَّى بَلَغَ أَعْلَى ٱلْجَبَلِ فَوَضَعَهَا عَلَيْهِ . وَأَسْرَعَ

ٱلتُّجَّارُ إِلَى ٱلسُّورِ فَخَافَتْ وَهَرَبَتْ مِنْهُمْ تَارِكَةً لَهُمْ مَا مَعَهَا مِنَ ٱللَّحْمِ، فَوَقَفْتُ عَلَى قَدَمَيَّ، وَلَمْ يَكَدْ يَرَانِي صَاحِبُ ٱلذَّبِيحَةِ حَتَّى تَمَلَّكَهُ ٱلْخَوْفُ وَٱلْفَزَعُ. وَنَظَرَ إِلَى ذَبِيحَتِهِ فَلَمْ يَجِدْ بِهَا شَيْئًا مِنَ ٱلْمَاسِ. فَصَرَخَ وَلَطَمَ وَجْهَهُ نَادِبًا سُوءَ حَظِّهِ وَضَيَاعَ تَعَبِهِ بِلَا فَائِدَةٍ. فَدَنَوْتُ مِنْهُ وَحَيَّيْتُهُ فَاطْمَأَنَّ، ثُمَّ أَعْطَيْتُهُ كَثِيرًا مِنَ ٱلْمَاسِ، فَتَبَدَّلَ حُزْنُهُ فَرَحًا وَسُرُورًا، وَسَأَلَنِي عَنْ قِصَّتِي فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا حَدَثَ لِي فَدُهِشَ، وَدُهِشَ مَعَهُ جَمِيعُ ٱلتُّجَّارِ أَشَدَّ دَهْشَةٍ.

١٠ — ٱلْعَوْدَةُ إِلَى بَغْدَادَ

ثُمَّ سَافَرْتُ مَعَهُمْ إِلَى بِلَادِي. وَقَدْ رَأَيْتُ فِي طَرِيقِي كَثِيرًا مِنَ ٱلْعَجَائِبِ ٱلَّتِي يَحَارُ فِيهَا ٱلْعَقْلُ. وَمَا زِلْنَا سَائِرِينَ أَيَّامًا وَلَيَالِيَ حَتَّى بَلَغْنَا «بَغْدَادَ» وَكَانَ مَعِي مِنَ ٱلْمَاسِ شَيْءٌ كَثِيرٌ لَا تُقَدَّرُ قِيمَتُهُ لِنَفَاسَتِهِ.

وَلَمْ أَكَدْ أَدْخُلُ «بَغْدَادَ» حَتَّى لَقِيَنِي أَهْلِي وَأَصْحَابِي فَرِحِينَ بِعَوْدَتِي فَرَحًا شَدِيدًا، وَتَصَدَّقْتُ عَلَى ٱلْفُقَرَاءِ وَٱلْمَسَاكِينِ بَعْدَ ذَلِكَ وَعَزَمْتُ عَلَى تَرْكِ ٱلْأَسْفَارِ وَٱلْبَقَاءِ فِي «بَغْدَادَ» طُولَ عُمْرِي.

وَلَمَّا ٱنْتَهَى «ٱلسِّنْدِبَادُ» مِنْ كَلَامِهِ أَمَرَ لِلْحَمَّالِ بِمِائَةِ دِينَارٍ، فَدَعَا لَهُ وَأَخَذَهَا مِنْهُ شَاكِرًا، وَٱنْصَرَفَ هُوَ وَجَمِيعُ ٱلْحَاضِرِينَ عَلَى أَنْ يَعُودُوا إِلَيْهِ فِي ٱلْيَوْمِ ٱلتَّالِي، وَلَمَّا حَضَرُوا فِي ٱلْغَدِ بَدَأَ «ٱلسِّنْدِبَادُ» يَقُصُّ عَلَيْهِمْ مَا حَدَثَ لَهُ فِي رِحْلَتِهِ ٱلثَّالِثَةِ فَقَالَ:

فى بلاد الأقزام والعمالقة

١ – هُبُوبُ ٱلْعَاصِفَةِ

بَعْدَ أَنْ عُدْتُ مِنْ رِحْلَتِي الثَّانِيَةِ أَقَمْتُ بِبَغْدَادَ مُدَّةً مِنَ الزَّمَنِ هَادِئَ ٱلْبَالِ مُسْتَرِيحَ ٱلْقَلْبِ لَا يُعَكِّرُ صَفْوِي أَيُّ كَدَرٍ ، وَلٰكِنَّ نَفْسِي سَئِمَتْ حَيَاةَ ٱلْكَسَلِ وَالرَّاحَةِ وَاشْتَاقَتْ إِلَى السَّفَرِ وَمَا فِيهِ مِنْ رِبْحٍ وَفِيرٍ ، فَاشْتَرَيْتُ كَثِيرًا مِنَ ٱلْبَضَائِعِ وَسَافَرْتُ بِهَا مِنْ « بَغْدَادَ » إِلَى « ٱلْبَصْرَةِ » حَيْثُ أَكْتَرَيْتُ أَنَا وَبَعْضُ التُّجَّارِ مَرْكَبًا كَبِيرًا أَقْلَعَ بِنَا وَسَارَ فِي عُرْضِ ٱلْبَحْرِ ، وَلَمْ نَزَلْ نَنْتَقِلُ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ وَمِنْ جَزِيرَةٍ إِلَى جَزِيرَةٍ وَنَحْنُ نَبِيعُ وَنَشْتَرِي وَنَرْبَحُ أَرْبَاحًا طَائِلَةً حَتَّى هَبَّتْ رِيحٌ شَدِيدَةٌ فَظَلَّتِ ٱلْأَمْوَاجُ تَتَقَاذَفُ ٱلْمَرْكَبَ وَيُهَدِّدُنَا ٱلْغَرَقُ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ ، وَمَا زِلْنَا كَذٰلِكَ حَتَّى ضَلَلْنَا الطَّرِيقَ وَمَكَثْنَا عِدَّةَ أَيَّامٍ تَائِهِينَ فِي ٱلْبَحْرِ لَا يَقَرُّ لَنَا قَرَارٌ حَتَّى لَاحَتْ لَنَا جَزِيرَةٌ كَبِيرَةٌ ، فَلَمْ يَكَدْ يَرَاهَا الرُّبَّانُ حَتَّى لَطَمَ وَجْهَهُ بِيَدَيْهِ وَأَلْقَى بِعِمَامَتِهِ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَصَاحَ خَائِفًا مَذْعُورًا :

« لَقَدْ هَلَكْنَا وَضَاعَ كُلُّ أَمَلٍ فِي نَجَاتِنَا »

٢ – مَعَ ٱلْأَقْزَامِ

فَسَأَلْنَاهُ عَنْ سَبَبِ ذَٰلِكَ فَقَالَ : « إِنَّ هَٰذِهِ ٱلْجَزِيرَةَ وَمَا يُجَاوِرُهَا مِنَ ٱلْجَزَائِرِ يَقْطُنُهَا قَوْمٌ مِنَ ٱلْأَقْزَامِ ٱلْمُتَوَحِّشِينَ وَهُمْ – عَلَى قِصَرِ قَامَاتِهِمْ – كَثِيرُو ٱلْعَدَدِ ، وَلَيْسَ فِي ٱسْتِطَاعَتِنَا أَنْ نُقَاوِمَهُمْ » .

وَلَمْ يَكَدْ يَنْتَهِي ٱلرُّبَّانُ مِنْ كَلَامِهِ حَتَّى خَاضَ إِلَيْنَا ٱلْمَاءَ أُولَٰئِكَ ٱلْهَمَجُ ٱلْمُتَوَحِّشُونَ وَأَحَاطُوا بِنَا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، وَكَانَ طُولُ كُلٍّ مِنْهُمْ لَا يَزِيدُ عَلَى قَدَمَيْنِ ، وَعَلَى جُسُومِهِمْ فِرَاءٌ حُمْرُ ٱلْأَلْوَانِ وَتَحَدَّثُوا بِكَلَامٍ لَا نَفْهَمُهُ ، ثُمَّ قَادُوا ٱلسَّفِينَةَ مُسْرِعِينَ إِلَى شَاطِئِ ٱلْجَزِيرَةِ فَلَمْ نَسْتَطِعِ ٱلدِّفَاعَ عَنْ أَنْفُسِنَا لِكَثْرَةِ عَدَدِهِمْ ، وَٱسْتَسْلَمْنَا عَاجِزِينَ عَنْ كُلِّ مُقَاوَمَةٍ .

ثُمَّ أَنْزَلُونَا مِنَ ٱلْمَرْكَبِ عَلَى شَاطِئِ ٱلْجَزِيرَةِ وَأَقْلَعُوا بِهِ إِلَى مَكَانٍ نَجْهَلُهُ وَتَرَكُونَا حَيَارَى لَا نَدْرِي كَيْفَ نَعْمَلُ .

فَسِرْنَا فِي ٱلْجَزِيرَةِ كَاسِفِي ٱلْبَالِ لَا أَمَلَ لَنَا فِي ٱلنَّجَاةِ وَٱلْخَلَاصِ مِنْ هَٰذَا ٱلْأَسْرِ .

٣ – قَصْرُ ٱلْعِمْلَاقِ

وَلَاحَ لَنَا قَصْرٌ كَبِيرٌ – عَلَى مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ مِنَ ٱلْجَزِيرَةِ – فَقَصَدْنَا إِلَيْهِ ، حَتَّى بَلَغْنَاهُ ، فَوَجَدْنَاهُ قَلْعَةً شَاهِقَةً مُحْكَمَةَ ٱلْبِنَاءِ ،

فَتَعَاوَنَّا جَمِيعاً عَلَى فَتْحِ بَابِهِ الْكَبِيرِ ، ثُمَّ دَخَلْنَا فِنَاءَهُ ، فَوَجَدْنَا فِيهِ كَوْمَةً مِنَ الْعِظَامِ الْبَشَرِيَّةِ ، فَهَالَنَا ذَلِكَ الْمَنْظَرُ وَامْتَلَأَتْ قُلُوبُنَا مِنْهُ رُعْباً . وَلَمْ يَنْطِقْ أَحَدٌ مِنَّا بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ — لِشِدَّةِ مَا لَحِقَنَا مِنَ الذُّعْرِ — وَبَقِينَا خَائِفِينَ طُولَ النَّهَارِ حَتَّى إِذَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ ، سَمِعْنَا صَرِيرَ الْبَابِ الْخَارِجِيِّ وَهُوَ يُقْفَلُ ، وَرَأَيْنَا عِمْلَاقاً هَائِلاً يَدْخُلُ عَلَيْنَا وَهُوَ — فِي مِثْلِ طُولِ النَّخْلَةِ — أَسْوَدُ الْوَجْهِ ، لَهُ عَيْنٌ وَاحِدَةٌ يَكَادُ يَتَطَايَرُ مِنْهَا الشَّرَرُ ، وَأَنْيَابٌ طَوِيلَةٌ حَادَّةٌ مُرَوِّعَةٌ !

٤ — فِي حَضْرَةِ الْعِمْلَاقِ

وَلَمْ نَكَدْ نَرَاهُ حَتَّى تَمَلَّكَنَا الرُّعْبُ وَاسْتَوْلَى عَلَيْنَا الْهَلَعُ وَالْفَزَعُ وَصِرْنَا كَالْمَوْتَى وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيْنَا نَظَرَاتٍ مُخِيفَةً ، ثُمَّ اقْتَرَبَ مِنِّي وَأَمْسَكَ بِي — وَأَنَا كَالْعُصْفُورِ فِي يَدِهِ — فَرَآنِي نَحِيفاً هَزِيلَ الْجِسْمِ ، فَتَرَكَنِي ، وَأَخَذَ غَيْرِي فَرَآهُ نَحِيفاً فَلَمْ يُعْجِبْهُ أَيْضاً .

٥ — كَيْفَ شَوَى الرُّبَّانَ

وَنَظَرَ الْعِمْلَاقُ إِلَى الرُّبَّانِ فَرَآهُ سَمِيناً فَأَعْجَبَهُ ، وَأَمْسَكَ بِهِ وَلَوَى رَقَبَتَهُ بِيَدِهِ ، ثُمَّ جَاءَ بِسَفُّودٍ طَوِيلٍ فَأَنْفَذَهُ فِيهِ ، وَأَوْقَدَ نَاراً

حَامِيَةً وَوَضَعَهُ عَلَيْهَا ، وَمَا زَالَ يُقَلِّبُهُ حَتَّى شَوَاهُ فَأَكَلَ لَحْمَهُ وَرَمَى عِظَامَهُ عَلَى ٱلْأَرْضِ ، ثُمَّ نَامَ فَسَمِعْنَا لَهُ شَخِيراً عَالِياً .

٦ — فِي ٱلْيَوْمِ التَّالِي

وَلَمَّا أَصْبَحَ الصَّبَاحُ خَرَجَ ٱلْعِمْلَاقُ مِنَ ٱلْقَصْرِ وَتَرَكَنَا ، فَخَرَجْنَا إِلَى ٱلْجَزِيرَةِ يَائِسِينَ ، وَتَمَنَّيْنَا لَوْ كُنَّا غَرِقْنَا فِي ٱلْبَحْرِ وَلَمْ نَقَعْ فِي قَبْضَةِ هَذَا ٱلْغُولِ ٱلْمُخِيفِ ، حَتَّى لَا يَكُونَ نَصِيبَنَا هَـٰذِهِ ٱلْمَوْتَةُ الشَّنْعَاءُ ٱلَّتِي لَمْ تَكُنْ لِتَخْطُرَ لَنَا عَلَى بَالٍ .

وبحثنا طولَ النّهارِ عن مَكانٍ نختبئُ فيهِ فلمْ نظفرْ بطائلٍ ، فعُدْنا إلى القصرِ خائفينَ ، وجاءَ العِملاقُ بعدَ قليلٍ فشوى أحدَنا – كما شوى بالأمسِ رُبّانَ السّفينةِ – وأكلَهُ ونامَ إلى الصّباحِ ، ثُمَّ خرجَ إلى حيثُ لا ندرى ، وخرجْنا هائمينَ في الجزيرةِ ، وقدْ أشارَ علينا بعضُ رفاقِنا أنْ نُلقىَ بأنفسِنا في البحرِ حتّى ننجوَ منْ هذهِ الموتةِ المُروِّعةِ . وأشارَ آخرونَ أنْ نحتالَ لقتلِ العِملاقِ .

٧ – فُلكُ النّجاةِ

فأشرتُ عليهمْ أنْ يُهيّئوا فُلكًا منْ خشبِ الأشجارِ ، حتّى إذا لمْ ننجحْ في قتلِ العِملاقِ هربْنا منَ الجزيرةِ في تلكَ الفُلكِ ، ففرحُوا جميعًا بهذا الرّأيِ ، وشرعْنا في العملِ بجِدٍّ ونشاطٍ حتّى إذا تمّتِ الفُلكُ وضعْنا فيها ما نحتاجُ إليهِ منَ الزّادِ وربطْناها إلى شاطئِ البحرِ .

٨ – تنفيذُ المُؤامرةِ

وعُدْنا إلى القصرِ ، فجاءَ العِملاقُ ففعلَ بثالثٍ منّا ما فعلَهُ بسابقيْهِ ثُمَّ نامَ كعادتِهِ وعلا شخيرُهُ ، فوضعْنا سَفُّودَيْنِ في النّارِ حتّى احمرّا ، ثُمَّ أدخلْناهُما معًا بقوّةٍ في عينيْهِ – وهوَ نائمٌ – فصرخَ صرخةً هائلةً منْ شدّةِ الألمِ ، وقامَ هائجًا كالمجنونِ يبحثُ عنّا

بَعْدَ أَنْ عَمِيَتْ عَيْنُهُ ، فَلَمْ يَهْتَدِ إِلَى أَحَدٍ ، فَسَارَ إِلَى ٱلْبَابِ فَفَتَحَهُ وَخَرَجَ ، فَفَرِحْنَا بِذٰلِكَ وَحَسِبْنَا أَنَّنَا أَصْبَحْنَا بِمَأْمَنٍ مِنْ شَرِّهِ !

٩ — ٱنْتِقَامُ ٱلْعَمَالِقَةِ

وَلٰكِنَّ فَرَحَنَا لَمْ يَطُلْ ، فَقَدْ جَاءَ إِلَيْنَا — بَعْدَ قَلِيلٍ — جَمَاعَةٌ مِنَ ٱلْعَمَالِقَةِ يُغَايِرُونَهُ فِي ٱلشَّكْلِ وَلَا يَقِلُّونَ عَنْهُ وَحْشِيَّةً وَفَظَاظَةً ، فَهَرَبْنَا مِنْهُمْ مُسْرِعِينَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي صَنَعْنَاهَا ، فَلَمَّا رَأَوْنَا فِي ٱلْبَحْرِ ظَلُّوا يَرْجُمُونَنَا بِحِجَارَةٍ كَبِيرَةٍ فَقَتَلُوا رِفَاقِي وَلَمْ يَنْجُ مَعِي مِنْهُمْ إِلَّا ٱثْنَانِ .

١٠ — ٱلْفِرَارُ مِنْ جَزِيرَةِ ٱلْعَمَالِقَةِ

وَبَعْدَ أَنْ نَجَوْنَا مِنْ شَرِّ أُولٰئِكَ ٱلْعَمَالِقَةِ أَصْبَحْنَا تَحْتَ رَحْمَةِ ٱلْأَمْوَاجِ ٱلْهَائِجَةِ — طُولَ نَهَارِنَا وَلَيْلَتِنَا — حَتَّى إِذَا أَصْبَحَ ٱلصَّبَاحُ قَذَفَتْنَا ٱلْأَمْوَاجُ إِلَى شَاطِئِ جَزِيرَةٍ كَبِيرَةٍ ، فَفَرِحْنَا بِذٰلِكَ وَأَكَلْنَا

مِنْ فَاكِهَتِهَا ٱلطَّيِّبَةِ وَشَرِبْنَا مِنْ مَائِهَا ٱلْعَذْبِ ، ثُمَّ جَلَسْنَا عَلَى شَاطِئِ ٱلْبَحْرِ فَرِحِينَ بِٱلنَّجَاةِ مِنْ أَرْضِ ٱلْعَمَالِقَةِ .

١١ — فِي فَمِ أَفْعَى

وَلَمَّا جَاءَ ٱللَّيْلُ نِمْنَا فَوْقَ شَجَرَةٍ عَالِيَةٍ وَٱسْتَيْقَظْنَا فَزِعِينَ فَرَأَيْنَا حَيَّةً هَائِلَةً قَدِ ٱلْتَقَمَتْ وَاحِداً مِنْ رِفَيقَيَّ ، فَسَمِعْنَا عِظَامَهُ تَتَكَسَّرُ فِي جَوْفِهَا وَهِيَ تَبْتَلِعُهُ فَٱشْتَدَّ خَوْفُنَا وَهَالَنَا ٱلْأَمْرُ وَقُلْنَا :

« لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْعَظِيمِ ، كُلَّمَا نَجَوْنَا مِنْ مُصِيبَةٍ وَقَعْنَا فِيمَا هُوَ شَرٌّ مِنْهَا » .

وَلَمَّا أَصْبَحَ ٱلصَّبَاحُ أَكَلْنَا وَشَرِبْنَا حَتَّى إِذَا جَاءَ ٱللَّيْلُ صَعِدْنَا إِلَى شَجَرَةٍ أُخْرَى فَنِمْتُ بِأَعْلَاهَا وَنَامَ رَفِيقِي قَرِيباً مِنِّي ، وَبَعْدَ قَلِيلٍ جَاءَتِ ٱلْحَيَّةُ فَٱلْتَقَمَتْ رَفِيقِي كَمَا ٱلْتَقَمَتْ صَاحِبَهُ بِٱلْأَمْسِ !

١٢ — كَيْفَ نَجَا ٱلسِّنْدِبَادُ مِنَ ٱلْأَفْعَى

فَمَكَثْتُ طُولَ ٱللَّيْلِ خَائِفاً حَتَّى إِذَا أَصْبَحَ ٱلصَّبَاحُ هَمَمْتُ أَنْ أُلْقِيَ بِنَفْسِي فِي ٱلْبَحْرِ فَمَنَعَنِي مِنْ ذَلِكَ حُبُّ ٱلْحَيَاةِ فَتَجَلَّدْتُ ،

وَلَمَّا اقْتَرَبَ ٱللَّيْلُ أَحْضَرْتُ أَلْوَاحاً مِنَ ٱلْخَشَبِ وَشَدَدْتُ جِسْمِي إِلَيْهَا شَدًّا وَثِيقاً، وَجَاءَتِ ٱلْحَيَّةُ - كَعَادَتِهَا - تُحَاوِلُ أَنْ تَبْتَلِعَنِي كَمَا ٱبْتَلَعَتْ رَفِيقَ، فَحَالَتِ ٱلْأَلْوَاحُ ٱلْمَشْدُودَةُ حَوْلِي دُونَ ذٰلِكَ، وَظَلَّتِ ٱلْحَيَّةُ طُولَ ٱللَّيْلِ تُحَاوِلُ أَنْ تَجِدَ مَنْفَذاً إِلَيَّ - مِنْ خِلَالِ ٱلْأَلْوَاحِ - دُونَ أَنْ تَظْفَرَ بِطَائِلٍ، فَلَمَّا بَدَا ٱلصَّبَاحُ عَادَتْ مِنْ حَيْثُ أَتَتْ فَحَلَلْتُ ٱلرِّبَاطَ وَخَرَجْتُ مِنْ بَيْنِ ٱلْخُشُبِ وَأَنَا أَحْمَدُ ٱللهَ عَلَى ٱلسَّلَامَةِ.

١٣ - ٱلْأَمَلُ بَعْدَ ٱلْيَأْسِ

وَجَلَسْتُ عَلَى شَاطِىءِ ٱلْبَحْرِ يَائِساً مَهْمُوماً أُفَكِّرُ فِيمَا حَلَّ بِي مِنَ ٱلْمَصَائِبِ، فَلَمَحْتُ مَرْكَباً كَبِيراً عَلَى مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ، فَلَمْ أَزَلْ أَصْرُخُ وَأَصِيحُ - مُشِيراً بِيَدِي مَرَّةً وَمُلَوِّحاً بِعِمَامَتِي مَرَّةً أُخْرَى - حَتَّى فَطِنَ إِلَيَّ بَعْضُ مَنْ بِٱلْمَرْكَبِ، فَٱقْتَرَبُوا مِنَ ٱلْجَزِيرَةِ وَرَسَوْا عَلَى شَاطِئِهَا، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِمْ فَرَدُّوا عَلَيَّ ٱلسَّلَامَ، وَفَرِحْتُ بِلِقَائِهِمْ فَرَحاً عَظِيماً، ثُمَّ حَمَلُونِي مَعَهُمْ وَسَأَلُونِي عَنْ أَمْرِي فَقَصَصْتُ عَلَيْهِمْ كُلَّ مَا حَدَثَ لِي، فَعَجِبُوا مِنْ ذٰلِكَ أَشَدَّ ٱلْعَجَبِ وَأَطْعَمُونِي وَسَقَوْنِي وَأَكْرَمُونِي أَحْسَنَ إِكْرَامٍ.

١٤ — رُبّانُ السَّفِينَةِ

وَلَمْ يَزَلِ الْمَرْكَبُ سَائِراً بِنا حَتَّى بَلَغْنَا بَلَداً كَبِيراً، فَقَالَ لِي الرُّبّانُ: « إِنَّ عِنْدِي بِضَاعَةَ لِرَجُلٍ اسْمُهُ « السِّنْدِبَادُ الْبَحْرِيُّ » كَانَ مَعَنَا ثُمَّ نَسِينَاهُ فِي جَزِيرَةٍ مَرَرْنَا بِهَا »

فَتَأَمَّلْتُ الرُّبّانَ فَعَرَفْتُهُ وَأَخْبَرْتُهُ أَنِّي أَنَا « السِّنْدِبَادُ الْبَحْرِيُّ » فَلَمْ يُصَدِّقْنِي أَوَّلَ الْأَمْرِ ، وَاجْتَمَعَ التُّجَّارُ حَوْلِي وَكَانَ مِنْ بَيْنِهِمْ التَّاجِرُ الَّذِي تَعَلَّقْتُ بِذَبِيحَتِهِ — فِي رِحْلَتِي السَّابِقَةِ الَّتِي قَصَصْتُهَا عَلَيْكُمْ — فَلَمْ يَكَدْ يُنْعِمُ النَّظَرَ فِيَّ حَتَّى عَرَفَنِي وَقَصَّ عَلَيْهِمْ مَا حَدَثَ لِي مَعَهُ ، فَحَدَّقَ الرُّبّانُ نَظَرَهُ فِيَّ فَعَرَفَنِي وَتَحَقَّقَ صِدْقَ قَوْلِي ، فَعَانَقَنِي فَرِحاً مَسْرُوراً .

١٥ — فِي بَغْدَادَ

وَمَا زِلْنَا نَنْتَقِلُ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ وَمِنْ جَزِيرَةٍ إِلَى جَزِيرَةٍ — وَتِجَارَتُنَا رَابِحَةٌ — حَتَّى وَصَلْنَا إِلَى «الْبَصْرَةِ» ثُمَّ سَافَرْتُ مِنْهَا إِلَى « بَغْدَادَ » وَمَعِي أَمْوَالٌ لَا تُحْصَى ، وَأَقْبَلَ عَلَيَّ أَهْلِي وَأَصْحَابِي يُهَنِّئُونَنِي بِرُجُوعِي سَالِماً وَقَدْ فَرِحُوا بِي فَرَحاً لَا يُوصَفُ .

وَلَمَّا انْتَهَى « السِّنْدِبَادُ » مِنْ كَلَامِهِ أَمَرَ لِلْحَمّالِ بِمِائَةِ دِينَارٍ، فَدَعَا لَهُ وَخَرَجَ مَعَ الْحَاضِرِينَ ، وَلَمَّا حَضَرُوا فِي الْيَوْمِ التَّالِي بَدَأَ « السِّنْدِبَادُ » يَقُصُّ عَلَيْهِمْ رِحْلَتَهُ الرَّابِعَةَ فَقَالَ .

بين جماجم الموتى

١ – كَيفَ تَحَطَّمَ ٱلمَرْكَبُ

بَقِيتُ فِي «بَغْدَادَ» هَادِئَ ٱلبَالِ مُنْغَمِسًا فِي ٱللَّهْوِ وَٱلتَّرَفِ مُدَّةً مِنَ ٱلزَّمَنِ نَسِيتُ فِيهَا مَا قَاسَيْتُهُ مِنَ ٱلشَّدَائِدِ فِي أَسْفَارِي ٱلسَّابِقَةِ. وَتَطَلَّعَتْ نَفْسِي لِلسَّفَرِ – مَرَّةً أُخْرَى – طَمَعًا فِيمَا يَجُرُّهُ مِنَ ٱلْكَسْبِ.

***

فَلَمْ أَتَرَدَّدْ فِي إِمْضَاءِ هٰذِهِ ٱلعَزِيمَةِ، وَٱشْتَرَيْتُ بِضَاعَةً وَحُمُولاً كَثِيرَةً، وَسَافَرْتُ مِنْ مَدِينَةِ «بَغْدَادَ» إِلَى مَدِينَةِ «ٱلْبَصْرَةِ» حَيْثُ ٱسْتَأْجَرْتُ أَنَا وَجَمَاعَةٌ مِنَ ٱلتُّجَّارِ مَرْكَبًا شِرَاعِيًّا كَبِيرًا سَارَ بِنَا أَيَّامًا وَلَيَالِيَ، وَكَانَتِ ٱلرِّيحُ طَيِّبَةً، وَٱلأُمُورُ عَلَى مَا يُرَامُ، وَلَمْ نَزَلْ نَتَّجِرُ وَنَبِيعُ وَنَشْتَرِي فِي كُلِّ مَكَانٍ حَلَلْنَا بِهِ حَتَّى هَبَّتْ عَلَيْنَا عَاصِفَةٌ شَدِيدَةٌ حَطَّمَتِ ٱلمَرْكَبَ وَمَزَّقَتْ شِرَاعَهُ تَمْزِيقًا.

فَغَرِقَ كُلُّ مَا مَعَنَا مِنَ ٱلْبَضَائِعِ كَمَا غَرِقَ كَثِيرٌ مِنَ ٱلمُسَافِرِينَ، وَبَقِيتُ أَنَا وَجَمَاعَةٌ قَلِيلَةٌ مِنَ ٱلتُّجَّارِ سَابِحِينَ فِي ٱلْبَحْرِ نِصْفَ نَهَارٍ،
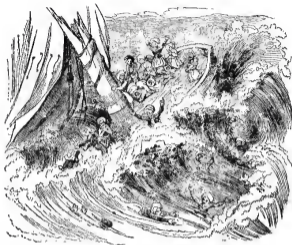
ثُمَّ ظَفِرْنَا بِلَوْحٍ مِنَ ٱلْخَشَبِ فَرَكِبْنَاهُ، وَلَمْ يَزَلْ سَائِراً بِنَا بَعْدَ أَنْ

هَدَأَتِ ٱلْعَاصِفَةُ وَطَابَتِ ٱلرِّيحُ يَوْماً وَلَيْلَةً، ثُمَّ قَذَفَتْنَا ٱلْأَمْوَاجُ إِلَى شَاطِئِ جَزِيرَةٍ وَنَحْنُ كَالْمَوْتَى مِمَّا كَابَدْنَاهُ مِنَ ٱلْمَشَقَّةِ وَٱلْعَنَاءِ.

٢ – جَزِيرَةُ ٱلْغِيلَانِ

وَمَشَيْنَا فِي الْجَزِيرَةِ فَوَجَدْنَا كَثِيراً مِنَ النَّبَاتِ وَالْفَاكِهَةِ وَالْعُشْبِ وَالْمَاءِ ، فَأَكَلْنَا وَشَرِبْنَا ثُمَّ نِمْنَا طُولَ اللَّيْلِ ، حَتَّى إِذَا طَلَعَ النَّهَارُ اسْتَأْنَفْنَا السَّيْرَ فِي الْجَزِيرَةِ فَلَاحَ لَنَا قَصْرٌ عَالٍ فَقَصَدْنَا إِلَيْهِ ، وَلَمَّا بَلَغْنَاهُ خَرَجَ عَلَيْنَا نَفَرٌ مِنَ الْمُتَوَحِّشِينَ وَهُمْ حُفَاةُ الْأَقْدَامِ عُرَاةُ الْأَجْسَامِ وَمَا كَادُوا يُبْصِرُونَنَا حَتَّى قَبَضُوا عَلَيْنَا ، وَسَارُوا بِنَا إِلَى مَلِكِهِمْ فَأَمَرَنَا بِالْجُلُوسِ فَأَطَعْنَا ، ثُمَّ أَحْضَرَ طَعَاماً فَأَكَلَ مِنْهُ أَصْحَابِي وَعَافَتْهُ نَفْسِي فَلَمْ آكُلْ مِنْهُ شَيْئاً — وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ حُسْنِ حَظِّي — فَإِنَّ أَصْحَابِي لَمْ يَنْتَهُوا مِنْ أَكْلِهِمْ هٰذَا حَتَّى ظَهَرَتْ عَلَيْهِمْ أَمَارَاتُ الْخَبَلِ وَالْجُنُونِ ، فَأَسِفْتُ لِذَلِكَ أَشَدَّ الْأَسَفِ وَأَدْرَكْتُ أَنَّ مَا أَكَلُوهُ مِنَ الطَّعَامِ هُوَ سَبَبُ مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الذُّهُولِ .

وَكَانَتْ هٰذِهِ عَادَةَ الْغِيلَانِ مَعَ كُلِّ مَنْ يَرْمِيهِمْ سُوءُ الْحَظِّ وَنَكَدُ الطَّالِعِ إِلَى هٰذِهِ الْجَزِيرَةِ ، إِذْ يُقَدِّمُونَ إِلَيْهِمْ هٰذَا الطَّعَامَ الْعَجِيبَ فَيُقْبِلُونَ عَلَيْهِ بِشَرَهٍ وَيُصِيبُهُمُ الذُّهُولُ ، وَلَا يَزَالُونَ يَأْكُلُونَ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ حَتَّى يَسْمَنُوا فَيَأْكُلَهُمُ الْغِيلَانُ ، وَلَمَّا تَكَشَّفَتْ لِي هٰذِهِ الْحَقِيقَةُ فَزِعْتُ فَزَعاً شَدِيداً وَامْتَنَعْتُ عَنْ أَكْلِ طَعَامِهِمْ مُكْتَفِياً بِمَا كُنْتُ أَقْتَاتُهُ مِنَ الْأَعْشَابِ ، فَأَصَابَنِي هُزَالٌ شَدِيدٌ جَعَلَهُمْ

لَا يَلْتَفِتُونَ إِلَيَّ وَلَا يُعْنَوْنَ بِمُرَاقَبَتِي ، وَكَانَ يَخْرُجُ بِأَصْحَابِي
— كُلَّ يَوْمٍ — وَاحِدٌ مِنْ أُولَئِكَ الْغِيلَانِ يَرْعَاهُمْ كَمَا تُرْعَى الْغَنَمُ .

٣ — هَرَبُ السِّنْدِبَادِ مِنَ الْغِيلَانِ

وَسَنَحَتْ لِي الْفُرْصَةُ — ذَاتَ يَوْمٍ — فَهَرَبْتُ مِنَ الرَّاعِي ،

وَمَا زِلْتُ اجْرِي — بِكُلِّ قُوَّتِي — حَتَّى أَقْبَلَ اللَّيْلُ ، فَنِمْتُ قَلِيلًا
ثُمَّ أَصَابَنِي الْأَرَقُ لِشِدَّةِ مَا لَحِقَنِي مِنَ الْخَوْفِ ، فَاسْتَأْنَفْتُ السَّيْرَ
وَمَا زِلْتُ سَائِرًا سَبْعَةَ أَيَّامٍ وَأَنَا آكُلُ مِمَّا أَلْقَاهُ فِي طَرِيقِي مِنَ
النَّارَجِيلِ « الْجَوْزِ الْهِنْدِيِّ » — الَّذِي كَانَ غِذَائِي وَشَرَابِي مَعًا —
وَكُنْتُ أَسِيرُ بِالنَّهَارِ وَأَنَامُ بِاللَّيْلِ

٤ – عَلَى شَاطِئِ ٱلْبَحْرِ

وَلَمَّا بَلَغْتُ شَاطِئَ ٱلْبَحْرِ رَأَيْتُ جَمَاعَةً يَجْمَعُونَ حَبَّ ٱلْفُلْفُلِ ، وَمَا كَادَ يَقَعُ بَصَرُهُمْ عَلَيَّ حَتَّى بَدَءُونِي بِالتَّحِيَّةِ وَسَأَلُونِي – بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ – : « مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ ؟ » .

فَقَصَصْتُ عَلَيْهِمْ مَا حَدَثَ لِي مَعَ ٱلْفِيلَانِ فَهَنَّأُونِي بِالسَّلَامَةِ وَقَدَّمُوا لِي طَعَامًا شَهِيًّا فَأَكَلْتُ حَتَّى شَبِعْتُ .

٥ – فِي حَضْرَةِ ٱلْمَلِكِ

وَلَمَّا ذَهَبُوا إِلَى مَلِكِهِمْ أَخْبَرْتُهُ بِقِصَّتِي فَعَجِبَ أَشَدَّ ٱلْعَجَبِ ، وَأَكْرَمَنِي وَآوَانِي عِنْدَهُ ، وَخَرَجْتُ – فِي ٱلْيَوْمِ التَّالِي – إِلَى ٱلْمَدِينَةِ ، فَرَأَيْتُهَا مَدِينَةً عَظِيمَةً مُزْدَحِمَةَ ٱلْأَسْوَاقِ .

٦ – سُرُوجُ ٱلْخَيْلِ

وَلٰكِنَّنِي رَأَيْتُ أَهْلَهَا يَرْكَبُونَ ٱلْخَيْلَ بِلَا سَرْجٍ وَلَا لِجَامٍ – لَا فَرْقَ فِي ذٰلِكَ بَيْنَ كَبِيرٍ وَصَغِيرٍ – فَذَهَبْتُ إِلَى ٱلْمَلِكِ وَأَبْدَيْتُ لَهُ دَهْشَتِي مِمَّا رَأَيْتُ ، فَقَالَ لِي : « إِنَّكَ تُحَدِّثُنِي عَنْ شَيْءٍ لَا أَعْرِفُهُ وَلَمْ أَرَهُ فِي حَيَاتِي قَطُّ » وَطَلَبَ إِلَيَّ أَنْ أَصْنَعَ لِفَرَسِهِ سَرْجًا وَلِجَامًا فَجَمَعْتُ بَعْضَ ٱلْعُمَّالِ ٱلْأَذْكِيَاءِ ، وَرَسَمْتُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَا يُلَائِمُ حِرْفَتَهُ مِنَ ٱلْعَمَلِ حَتَّى تَمَّ السَّرْجُ فَحَلَّيْتُهُ بِطِرَازٍ ذَهَبِيٍّ

نَفِيس ، وَأَرْشَدْتُ ٱلْحَدَّادَ إِلَى طَرِيقَةِ صُنْعِ الرِّكَابِ وَاللِّجَامِ فَلَمَّا أَتَمَّ صُنْعَهُمَا ذَهَبْتُ إِلَى ٱلْمَلِكِ — وَمَعِي سَرْجٌ وَلِجَامٌ وَرِكَابٌ — وَذَكَرْتُ لَهُ فَائِدَةَ كُلٍّ مِنْهَا فَأَمَرَ بِإِحْضَارِ فَرَسِهِ فَأَسْرَجْتُهَا وَأَلْجَمْتُهَا ، ثُمَّ رَكِبَهَا ٱلْمَلِكُ فَسُرَّ مِنْ ذَلِكَ سُرُوراً عَظِيماً وَشَكَرَ لِي هَذِهِ ٱلْهَدِيَّةَ ٱلنَّفِيسَةَ ، وَكَافَأَنِي عَلَيْهَا أَحْسَنَ مُكَافَأَةٍ .

ثُمَّ طَلَبَ إِلَيَّ أَعْيَانُ ٱلدَّوْلَةِ أَنْ أَصْنَعَ لَهُمْ مِثْلَ ذَلِكَ فَأَجَبْتُهُمْ إِلَى مَا طَلَبُوا ، فَغَمَرُونِي بِهَدَايَاهُمُ النَّفِيسَةِ حَتَّى أَصْبَحْتُ مِنَ ٱلْأَغْنِيَاءِ

٧ — زَوَاجُ السِّنْدِبَادِ

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ قَالَ لِي ٱلْمَلِكُ : « إِنَّنِي وَجَمِيعَ حَاشِيَتِي نُحِبُّكَ يَا سِنْدِبَادُ حُبًّا لَا مَزِيدَ عَلَيْهِ ، وَنُرِيدُ أَنْ تَبْقَى مَعَنَا طُولَ عُمْرِكَ وَلَا بُدَّ مِنْ تَزْوِيجِكَ حَتَّى لَا تُفَارِقَنَا ، وَقَدْ تَخَيَّرْتُ لَكَ فَتَاةً جَمِيلَةً غَنِيَّةً لِتَتَزَوَّجَ مِنْهَا ، فَمَاذَا أَنْتَ قَائِلٌ ؟ »

فَلَمْ أَسْتَطِعْ مُخَالَفَةَ أَمْرِهِ ، وَرَضِيتُ بِالزَّوَاجِ مِنْ تِلْكَ ٱلْفَتَاةِ — وَكَانَتْ ذَاتَ جَمَالٍ وَأَدَبٍ — فَعِشْنَا مَعاً عَلَى أَحْسَنِ حَالٍ وَأَهْدَإِ بَالٍ ، وَلٰكِنَّنِي كُنْتُ — فِي كُلِّ يَوْمٍ — أَتَرَقَّبُ ٱلْفُرَصَ لِلسَّفَرِ إِلَى بَلَدِي فِي أَوَّلِ سَفِينَةٍ تَمُرُّ بِهٰذِهِ ٱلْجَزِيرَةِ .

٨ — دَفْنُ ٱلْأَحْيَاءِ مَعَ ٱلْأَمْوَاتِ

وَحَدَثَ — فِي بَعْضِ ٱلْأَيَّامِ — مَا لَمْ أَكُنْ أَتَوَقَّعُهُ ، فَقَدْ مَاتَتْ زَوْجَةُ جَارِي وَكَانَ مِنْ أَحَبِّ ٱلْأَصْدِقَاءِ إِلَيَّ ، فَلَمَّا ذَهَبْتُ أُعَزِّيهِ وَجَدْتُهُ فِي حَالٍ لَا تُوصَفُ — مِنْ شِدَّةِ ٱلْجَزَعِ وَٱلْغَمِّ — فَقُلْتُ لَهُ : « تَشَجَّعْ يَا أَخِي وَلَا تَحْزَنْ » .

وَدَعَوْتُ لَهُ بِطُولِ ٱلْبَقَاءِ ، فَقَالَ لِي مُتَحَسِّراً : « كَيْفَ يَطُولُ بَقَائِي وَلَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَ ٱلْهَلَاكِ إِلَّا سَاعَةٌ وَاحِدَةٌ »

فَقُلْتُ لَهُ — : « لَا بُدَّ مِنَ الصَّبْرِ ، وَسَيُطِيلُ ٱللهُ عُمْرَكَ وَتَنْسَى مُصَابَكَ هٰذَا ، وَيَكُونُ آخِرَ مَكْرُوهٍ يَلْحَقُكَ ! »

فَقَالَ لِي — : « أَمَّا طُولُ ٱلْعُمْرِ فَلَيْسَ لِي فِيهِ مَطْمَعٌ ، لِأَنِّي سَأُدْفَنُ مَعَ زَوْجَتِي حَيًّا — بَعْدَ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ — وَقَدْ وَدَّعْتُ أَهْلِي وَأَصْدِقَائِي جَمِيعًا ! »

فَدَهِشْتُ مِنْ قَوْلِهِ أَشَدَّ دَهْشَةٍ ، وَسَأَلْتُهُ مُتَعَجِّبًا :

« وَكَيْفَ تُدْفَنُ مَعَ زَوْجَتِكَ وَأَنْتَ حَيٌّ ؟ » ، فَقَالَ لِي :

« إِنَّ شَرِيعَةَ بِلادِنَا تُحَتِّمُ عَلَى كُلِّ رَجُلٍ تَمُوتُ زَوْجَتُهُ أَنْ يُدْفَنَ مَعَهَا حَيًّا ، وَعَلَى كُلِّ امْرَأَةٍ يَمُوتُ زَوْجُهَا أَنْ تُدْفَنَ مَعَهُ كَذَلِكَ ؟ »

فَزَادَتْ دَهْشَتِي ، وَسَأَلْتُهُ :

« أَلَيْسَ فِي قُدْرَةِ أَحَدٍ أَنْ يُغَيِّرَ هَذِهِ الشَّرِيعَةَ القَاسِيَةَ ؟ »

فَأَجَابَنِي يَائِسًا — : « ذَلِكَ مُحَالٌ ، فَإِنَّ هَذَا الْقَانُونَ يَسْرِي عَلَى أَهْلِ الْجَزِيرَةِ كُلِّهِمْ ، مِنَ الْمَلِكِ إِلَى أَصْغَرِ فَرْدٍ فِي الرَّعِيَّةِ . »

وَلَمْ يَكَدْ يَفْرُغُ مِنْ كَلَامِهِ حَتَّى اجْتَمَعَ حَوْلَهُ أَهْلُهُ وَعَارِفُوهُ ، فَوَضَعُوا زَوْجَتَهُ فِي النَّعْشِ وَوَضَعُوا مَعَهَا كُلَّ حُلَاهَا ، وَسَارُوا بِهِمَا إِلَى جُبٍّ بَعِيدٍ عَنِ الْمَدِينَةِ ، وَكَشَفُوا غِطَاءَهُ — وَهُوَ صَخْرَةٌ كَبِيرَةٌ — وَأَلْقَوْا بِالزَّوْجَةِ فِيهِ ، ثُمَّ رَبَطُوا زَوْجَهَا بِحِبَالٍ طَوِيلَةٍ وَوَدَّعُوهُ ، وَوَضَعُوا — إِلَى جَانِبِهِ — قُلَّةَ مَاءٍ وَسَبْعَةَ أَرْغِفَةٍ ، وَلَمَّا أَنْزَلُوهُ فِي الْجُبِّ أَعَادُوا غِطَاءَهُ وَرَجَعُوا مِنْ حَيْثُ أَتَوْا ؟

٩ — الشَّكْوَى إِلَى الْمَلِكِ

وَلَيْسَ فِي قُدْرَتِي أَنْ أَصِفَ لَكُمْ مَا لَحِقَنِي مِنَ الْجَزَعِ وَالْخَوْفِ مِمَّا رَأَيْتُ ، وَلَقَدْ أَسْرَعْتُ بِالذَّهَابِ إِلَى مَلِكِ الْجَزِيرَةِ فَشَكَوْتُ لَهُ هَذِهِ الْعَادَةَ السَّيِّئَةَ الَّتِي لَمْ أَرَهَا فِي غَيْرِ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ ، فَقَالَ لِي مُبْتَسِمًا :

« هَذِهِ هِيَ شَرِيعَةُ بِلَادِنَا ، وَهِيَ سَارِيَةٌ عَلَيَّ وَعَلَى جَمِيعِ رَعِيَّتِي فَإِذَا مَاتَتِ ٱلْمَلِكَةُ قَبْلِي دُفِنْتُ مَعَهَا ، وَإِذَا مِتُّ قَبْلَهَا دُفِنَتْ مَعِي ؟ »

فَزَادَ عَجَبِي مِنْ ذَلِكَ وَقُلْتُ لَهُ — : « وَهَلْ يَسْرِي هَذَا ٱلْقَانُونُ ٱلْقَاسِي عَلَى ٱلْغُرَبَاءِ أَيْضًا ؟ » فَأَجَابَنِي — : « نَعَمْ ، فَهُوَ يَسْرِي عَلَى كُلِّ مَنْ تَزَوَّجَ فِي هَذِهِ ٱلْمَدِينَةِ أَيًّا كَانَ جِنْسُهُ ! »

فَرَجَعْتُ مِنْ عِنْدِهِ مَهْمُومًا ، وَصِرْتُ أَجْزَعُ كُلَّمَا لَحِقَ زَوْجَتِي أَقَلُّ أَذًى ، وَأَخْشَى عَلَيْهَا كُلَّمَا مَرِضَتْ ، وَكُنْتُ إِذَا جُرِحَتْ إِصْبَعُهَا بِتُّ طُولَ ٱللَّيْلِ سَاهِرًا خَشْيَةَ أَنْ تَمُوتَ .

١٠ — وَفَاةُ زَوْجَةِ ٱلسِّنْدِبَادِ

وَكَانَ مَا خِفْتُ أَنْ يَكُونَ ، فَلَمْ يَمْضِ عَلَى زَوْجَتِي زَمَنٌ يَسِيرٌ حَتَّى مَرِضَتْ ثُمَّ مَاتَتْ ، فَوَقَعَ عَلَيَّ هَذَا ٱلْحَادِثُ وُقُوعَ ٱلصَّاعِقَةِ ، وَذَكَرْتُ أَنَّ كُلَّ مَوْتَةٍ تَعَرَّضْتُ لَهَا وَنَجَوْتُ مِنْهَا فِي رِحْلَاتِي ٱلسَّابِقَةِ كَانَتْ أَهْوَنَ عَلَى نَفْسِي مِنْ أَنْ أُدْفَنَ حَيًّا .

وَجَاءُوا فَكَفَّنُوا زَوْجَتِي فِي أَبْهَى أَثْوَابِهَا وَوَضَعُوا مَعَهَا كُلَّ حُلِيِّهَا ، وَسِرْتُ خَلْفَهَا وَمَعِي كِبَارُ ٱلدَّوْلَةِ وَأَعْيَانُ ٱلْمَدِينَةِ يَتَقَدَّمُهُمُ ٱلْمَلِكُ نَفْسُهُ حَتَّى بَلَغْنَا ذَلِكَ ٱلْجُبَّ ٱلْمَشْئُومَ ، فَكَشَفُوا غِطَاءَهُ

وَأَنْزَلُوا زَوْجَتِي فِيهِ، وَأَقْبَلَ عَلَيَّ الْمَلِكُ وَالْأَعْيَانُ يُوَدِّعُونَنِي، فَصَرَخْتُ بَاكِيًا مِنْ هَوْلِ مَا أَنَا قَادِمٌ عَلَيْهِ، وَتَوَسَّلْتُ إِلَيْهِمْ جَمِيعًا - طَمَعًا فِي أَنْ يُطْلِقُوا سَرَاحِي - فَلَمْ يُصْغِ أَحَدٌ إِلَى كَلَامِي.

١١ - بَيْنَ جَمَاجِمِ الْمَوْتَى

ثُمَّ أَنْزَلُونِي إِلَى الْجُبِّ قَسْرًا وَأَنْزَلُوا مَعِي قُلَّةَ مَاءٍ وَسَبْعَةَ أَرْغِفَةٍ، وَأَعَادُوا غِطَاءَ الْجُبِّ ثَانِيَةً وَانْصَرَفُوا. وَبَقِيتُ وَحْدِي فِي ظُلْمَةِ هَذَا الْجُبِّ - بَيْنَ جَمَاجِمِ الْمَوْتَى - مُتَرَقِّبًا سَاعَتِيَ الْأَخِيرَةَ بَيْنَ يَوْمٍ وَآخَرَ.

*
* *

وَلَاحَ لِي فِي تِلْكَ الْحُفْرَةِ الْمُظْلِمَةِ بَصِيصٌ ضَئِيلٌ مِنَ النُّورِ فَرَأَيْتُ حَوْلِي أَكْدَاسًا مِنْ عِظَامِ الْمَوْتَى وَجَمَاجِمِهِمْ، فَازْدَادَ رُعْبِي وَأَخَذْتُ أَلُومُ نَفْسِي عَلَى هَذِهِ الرِّحْلَةِ الْمَشْئُومَةِ وَنَدِمْتُ عَلَى

مَا فَعَلْتُ حَيْثُ لاَ يَنْفَعُ النَّدَمُ ، ثُمَّ رَضِيتُ بِقَضَاءِ ٱللهِ وَجَعَلْتُ أَقْتَصِدُ فِى ٱلْأَكْلِ وَالشُّرْبِ حَتَّى لاَ يَنْفَدَ مَا مَعِى مِنَ الطَّعَامِ فِى زَمَنٍ قَلِيلٍ ، وَلٰكِنَّنِى — بَعْدَ بِضْعَةِ أَيَّامٍ — ٱسْتَنْفَدْتُ زَادِى كُلَّهُ وَأَيْقَنْتُ حِينَئِذٍ بِالْهَلَاكِ . وَإِنِّى لَكَذٰلِكَ إِذْ كُشِفَ

غِطَاءُ ٱلْجُبِّ وَنَزَلَ فِيهِ رَجُلٌ مَيِّتٌ وَزَوْجَتُهُ — وَمَعَهَا ٱلْأَرْغِفَةُ السَّبْعَةُ وَقُلَّةُ ٱلْمَاءِ — ثُمَّ أَعَادُوا غِطَاءَ ٱلْجُبِّ ثَانِيَةً ، وَمَا كَادَتِ ٱلْمَرْأَةُ تَسْتَقِرُّ فِى ٱلْجُبِّ بَعْدَ أَنْ أَعَادُوا غِطَاءَهُ ثَانِيَةً حَتَّى مَاتَتْ مِنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلرُّعْبِ ، فَأَخَذْتُ مَا مَعَهَا مِنَ ٱلزَّادِ وَٱلْمَاءِ فَكُنْتُ آكُلُ مِنْهُ وَأَشْرَبُ مُقْتَصِداً أَيَّاماً وَلَيَالِىَ ، وَبَقِيتُ أَتَرَقَّبُ

كُلَّ مَنْ يَدْفِنُونَهُ مِنَ الْأَحْيَاءِ الَّذِينَ كَانُوا يَمُوتُونَ مِنَ الرُّعْبِ فَآخُذُ زَادَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيَّ الزَّمَنُ وَسَئِمْتُ الْحَيَاةَ فِي هَـذَا الْجُبِّ الْمُظْلِمِ .

١٢ – النَّجَاةُ مِنَ الْجُبِّ

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ رَأَيْتُ – لِحُسْنِ حَظِّي – شَبَحًا يَدْنُو مِنِّي فَلَمْ أَسْتَطِعْ تَمْيِيزَهُ لِظُلْمَةِ الْمَكَانِ ، وَلَـكِنِّي أَحْسَسْتُ أَنْفَاسَهُ عَنْ قُرْبٍ فَقُمْتُ خَائِفًا مَذْعُورًا ، فَفَزِعَ مِنِّي ذَلِكَ الشَّبَحُ وَعَادَ مِنْ حَيْثُ أَتَى ، فَتَبِعْتُهُ لِأَعْرِفَ مِنْ أَيْنَ يَخْرُجُ ، فَرَأَيْتُهُ يَتَسَلَّلُ مِنْ مَنْفَذٍ صَغِيرٍ فِي آخِرِ الْحُفْرَةِ ، فَلَاحَ لِي أَمَلٌ كَبِيرٌ فِي النَّجَاةِ ، وَبَذَلْتُ جُهْدِي فِي تَوْسِيعِ هَـذَا الْمَنْفَذِ حَتَّى تَمَّ لِي ذَلِكَ ، فَخَرَجْتُ مِنْهُ ، فَرَأَيْتُنِي عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ فَفَرِحْتُ بِذَلِكَ فَرَحًا لَا يُوصَفُ ، ثُمَّ عُدْتُ إِلَى الْجُبِّ فَجَمَعْتُ كُلَّ مَا قَدَرْتُ عَلَى جَمْعِهِ مِنَ الْحُلِيِّ وَالْجَوَاهِرِ النَّفِيسَةِ الَّتِي دَفَنُوهَا مَعَ الْمَوْتَى ، وَوَضَعْتُهَا فِي أَثْوَابِهِمْ وَأَكْفَانِهِمْ ، وَبَقِيتُ أَذْهَبُ إِلَى الْجُبِّ كُلَّ يَوْمٍ فَأَحْمِلُ مِنْهُ مَا أَسْتَطِيعُ حَمْلَهُ مِنْ كُنُوزٍ وَنَفَائِسَ ثُمَّ أَعُودُ إِلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ مُتَرَقِّبًا قُدُومَ أَيِّ مَرْكَبٍ يَحْمِلُنِي إِلَى بَلَدِي أَوْ يُبْعِدُنِي عَنْ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ الْمَشْئُومَةِ .

١٣ – مَرْكَبُ ٱلنَّجَاةِ

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ – بَيْنَمَا أَنَا عَلَى شَاطِئِ ٱلْبَحْرِ – إِذْ لَاحَ لِي مَرْكَبٌ مِنْ بَعِيدٍ ، وَلَمْ أَكَدْ أَرَاهُ حَتَّى نَهَضْتُ قَائِمًا وَأَخَذْتُ أُنَادِي بِأَعْلَى صَوْتِي وَأُشِيرُ لِمَنْ فِيهِ بِيَدِي ، وَأَمْسَكْتُ

بِقِطْعَةٍ مِنَ الثِّيَابِ فَلَوَّحْتُ لَهُمْ بِهَا ، حَتَّى فَطِنُوا إِلَيَّ ، فَحَوَّلُوا مَرْكَبَهُمْ إِلَى الشَّاطِئِ حَتَّى بَلَغُوهُ ، فَبَدَأْتُهُمْ بِالسَّلَامِ فَرَدُّوا عَلَيَّ أَحْسَنَ رَدٍّ ، وَطَلَبْتُ إِلَيْهِمْ أَنْ يَأْخُذُونِي مَعَهُمْ ، فَلَمْ يَتَرَدَّدُوا فِي ذَلِكَ ، وَسَأَلُونِي عَنْ قِصَّتِي فَخَشِيتُ أَنْ أُخْبِرَهُمْ بِالْحَقِيقَةِ كُلِّهَا لِئَلَّا يَكُونَ فِيهِمْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ تِلْكَ ٱلْجَزِيرَةِ فَتَسُوءَ ٱلْعَاقِبَةُ ، وَقُلْتُ لَهُمْ : « أَنَا تَاجِرٌ وَقَدْ غَرِقَ مَرْكَبِي فَنَجَوْتُ بِهٰذِهِ الثِّيَابِ عَلَى لَوْحٍ مِنَ ٱلْخَشَبِ حَمَلَنِي إِلَى هٰذِهِ ٱلْجَزِيرَةِ ! »

وَعَرَضْتُ عَلَى رُبَّانِ السَّفِينَةِ هَدِيَّةً نَفِيسَةً – مُكَافَأَةً لَهُ عَلَى

صَنِيعِهِ – فَرَفَضَ وَقَالَ لِي : « أَنَا لاَ آخُذُ عَلَى مَعْرُوفٍ أَجْراً وَلاَ جَزَاءً » فَشَكَرْتُ لَهُ ذَلِكَ كُلَّ الشُّكْرِ !

١٤ – اَلْعَوْدَةُ إِلَى الْوَطَنِ

وَعَلِمْتُ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ مُسَافِرُونَ إِلَى « الْبَصْرَةِ » فَفَرِحْتُ بِذَلِكَ فَرَحاً شَدِيداً ، وَلَمْ يَزَلِ الْمَرْكَبُ سَائِراً بِنَا مِنْ جَزِيرَةٍ إِلَى جَزِيرَةٍ وَمِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ ، وَهُمْ يُطْعِمُونَنِي مِنْ طَعَامِهِمْ وَلاَ يَبْخَلُونَ عَلَيَّ بِشَيْءٍ مِمَّا أَحْتَاجُ إِلَيْهِ حَتَّى وَصَلْنَا إِلَى « الْبَصْرَةِ » فَأَقَمْتُ بِهَا أَيَّاماً قَلاَئِلَ ، ثُمَّ ذَهَبْتُ مِنْهَا إِلَى « بَغْدَادَ »

فَفَرِحَ بِي أَهْلِي وَأَصْحَابِي فَرَحاً لاَ يُوصَفُ وَهَنَّأُونِي بِالسَّلاَمَةِ ، وَوَهَبْتُ الْفُقَرَاءَ كَثِيراً مِنْ مَالِي وَعَزَمْتُ عَلَى تَرْكِ الْأَسْفَارِ بَعْدَ مَا لَقِيتُهُ مِنَ الْمَتَاعِبِ وَالشَّدَائِدِ .

*
* *

وَلَمَّا انْتَهَى « السِّنْدِبَادُ » مِنْ كَلاَمِهِ أَمَرَ لِلْحَمَّالِ بِمِائَةِ دِينَارٍ فَأَخَذَهَا شَاكِراً وَانْصَرَفَ هُوَ وَجَمِيعُ الْحَاضِرِينَ .

وَلَمَّا جَاءُوا فِي الْغَدِ بَدَأَ « السِّنْدِبَادُ » يَقُصُّ عَلَيْهِمْ مَا حَدَثَ لَهُ مِنَ الْعَجَائِبِ فِي رِحْلَتِهِ الْخَامِسَةِ فَقَالَ :

«١» شيخ البحر «٢» مدينة القرود

١ – جَزِيرَةُ الرُّخ

لَمْ يَكْفِنِي مَا رَكِبْتُهُ مِنَ الْأَخْطَارِ ، وَلَمْ يَثْنِ عَزِيمَتِي مَا لَقِيتُهُ مِنَ الْمَخَاوِفِ فِي أَسْفَارِي السَّابِقَةِ ، فَقَدْ نَسِيتُ ذَلِكَ كُلَّهُ – بَعْدَ قَلِيلٍ مِنَ الزَّمَنِ – وَرَغِبَتْ نَفْسِي فِي السَّفَرِ وَالِاتِّجَارِ ، فَأَعْدَدْتُ كُلَّ مَا أَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي رِحْلَتِي مِنْ بِضَاعَةٍ وَمَتْجَرٍ ، وَلَمْ أَسْتَأْجِرْ مَرْكَبًا فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ – كَمَا فَعَلْتُ فِي أَسْفَارِي السَّابِقَةِ – بَلِ اشْتَرَيْتُ مَرْكَبًا جَدِيدًا لِيَذْهَبَ بِي إِلَى حَيْثُ أُرِيدُ ، وَسَافَرَ مَعِي جَمَاعَةٌ مِنْ أَعْيَانِ التُّجَّارِ .

ثُمَّ أَبْحَرَ بِنَا الْمَرْكَبُ مِنْ مَدِينَةِ «الْبَصْرَةِ» وَكَانَتِ الرِّيحُ طَيِّبَةً وَالْأُمُورُ عَلَى أَحْسَنِ مَا يُرَامُ ، وَمَا زِلْنَا سَائِرِينَ فِي الْبَحْرِ أَيَّامًا وَلَيَالِيَ حَتَّى رَسَا الْمَرْكَبُ عَلَى جَزِيرَةٍ كَبِيرَةٍ مُقْفِرَةٍ مِنَ النَّاسِ اسْمُهَا جَزِيرَةُ الرُّخِّ ، فَخَطَرَ لَنَا أَنْ نَنْزِلَ بِهَا لِنُرَوِّحَ عَنْ أَنْفُسِنَا مَتَاعِبَ السَّفَرِ وَلَمْ نَكَدْ نَمْشِي فِيهَا قَلِيلًا حَتَّى لَاحَتْ لَنَا بَيْضَةُ رُخٍّ كَبِيرَةٌ فِي حَجْمِ تِلْكَ الْبَيْضَةِ الَّتِي وَصَفْتُهَا لَكُمْ فِي رِحْلَتِي الثَّانِيَةِ !

٢ — فَرْخُ ٱلرُّخِّ

وَكَانَتْ عَلَى وَشْكِ أَنْ تُفْرِخَ ، فَقَدْ أَطَلَّ فَرْخُ الرُّخِّ بِمِنْقَارِهِ مِنْهَا ، وَلَمْ يَكَدْ يَرَاهُ رِفَاقِي حَتَّى انْدَفَعُوا إِلَى الْبَيْضَةِ يُكَسِّرُونَهَا

بِمَعَاوِلِهِمْ وَفُؤُوسِهِمْ وَأَنَا أَنْهَاهُمْ عَنْ ذَلِكَ وَأُحَذِّرُهُمْ وَخَامَةَ الْعَاقِبَةِ ، وَهُمْ لَا يُصْغُونَ إِلَى نُصْحِي وَلَا يَسْمَعُونَ لِي قَوْلًا . وَمَا زَالُوا بِهَا حَتَّى حَطَّمُوهَا تَحْطِيماً وَقَتَلُوا الْفَرْخَ وَأَخَذُوا شَيْئاً مِنْ لَحْمِهِ يَشْوُونَهُ عَلَى النَّارِ ، حَتَّى إِذَا تَمَّ لَهُمْ ذَلِكَ أَكَلُوهُ ؟

٣ — طَائِرَا ٱلرُّخِّ

وَمَا كَادُوا يَنْتَهُونَ مِنْ تِلْكَ ٱلْأَكْلَةِ ٱلْمَشْئُومَةِ حَتَّى أَظْلَمَ ٱلْجَوُّ

وَحَجَبَ عَنَّا ضَوْءَ الشَّمْسِ طَائِرَانِ كَبِيرَانِ فَعَرَفْتُ أَنَّهُمَا طَائِرَا الرُّخِّ ، وَأَدْرَكَ الرُّبَّانُ الْخَطَرَ الْمُحْدِقَ بِنَا فَصَاحَ : « أَسْرِعُوا إِلَى الْمَرْكَبِ قَبْلَ أَنْ يَحِلَّ بِكُمْ غَضَبُهُمَا وَنِقْمَتُهُمَا » فَجَرَيْنَا إِلَى الْمَرْكَبِ مُسْرِعِينَ ، وَأَرْخَيْنَا شِرَاعَهُ فَسَارَ بِنَا بِأَقْصَى سُرْعَةٍ .

٤ — انْتِقَامُ الرُّخِّ

وَكَانَ طَائِرَا الرُّخِّ قَدْ وَصَلَا إِلَى بَيْضَتِهِمَا فَرَأَيَا مَا حَلَّ بِوَلِيدِهِمَا فَصَاحَا مِنَ الْجَزَعِ ، أَمَّا نَحْنُ فَقَدْ سَارَ بِنَا الْمَرْكَبُ حَتَّى غَابَا عَنْ أَبْصَارِنَا فَحَسِبْنَا أَنَّنَا قَدْ أَصْبَحْنَا بِمَأْمَنٍ مِنْ شَرِّهِمَا ، وَلٰكِنَّهُمَا عَادَا إِلَيْنَا — بَعْدَ قَلِيلٍ — وَفِي مِخْلَبَيْ كُلٍّ مِنْهُمَا صَخْرَةٌ عَظِيمَةٌ ، وَأَسْرَعَتْ أُنْثَى الرُّخِّ فَأَلْقَتِ الصَّخْرَةَ الَّتِي تَحْمِلُهَا عَلَى مَرْكَبِنَا ، وَكَانَ رُبَّانُنَا ذَكِيًّا مَاهِرًا فَأَدَارَ فِي الْحَالِ سُكَّانَ الْمَرْكَبِ ، فَانْحَرَفَ عَنِ الصَّخْرَةِ فَهَوَتْ إِلَى الْبَحْرِ وَشَقَّتِ الْمَاءَ نِصْفَيْنِ كِدْنَا نُبْصِرُ مِنْ خِلَالِهِمَا قَرَارَهُ .

٥ — تَحْطِيمُ الْمَرْكَبِ

وَلَمْ نَكَدْ نَفْرَحُ بِزَوَالِ هٰذَا الْخَطَرِ عَنَّا ، حَتَّى أَلْقَى طَيْرُ الرُّخِّ صَخْرَتَهُ عَلَى مَرْكَبِنَا ، فَأَصَابَتْ جَانِبَهُ وَهَشَّمَتْهُ تَهْشِيمًا ، فَهَوَى الْمَرْكَبُ إِلَى جَوْفِ الْبَحْرِ بِمَا فِيهِ مِنَ الْمَتَاعِ وَالنَّاسِ وَكِدْتُ أَغْرَقُ

فِيمَنْ غَرِقَ لَوْلَا أَنِّي وَجَدْتُ لَوْحًا مِنَ ٱلْخَشَبِ قَرِيبًا مِنِّي ، فَتَعَلَّقْتُ بِهِ لِلْحَالِ .

٦ – جَزِيرَةُ شَيْخِ ٱلْبَحْرِ

وَمَا زَالَ ٱللَّوْحُ سَائِرًا بِي فِي عُرْضِ ٱلْبَحْرِ ، وَأَنَا لَا أَعْرِفُ أَيْنَ يَسِيرُ بِي حَتَّى قَذَفَتْنِي ٱلْأَمْوَاجُ – لِحُسْنِ حَظِّي – إِلَى جَزِيرَةٍ قَرِيبَةٍ ، وَكَانَ شَاطِئُهَا مُرْتَفِعًا كَثِيرَ ٱلصُّخُورِ وَٱلْحِجَارَةِ ، فَتَمَكَّنْتُ مِنَ ٱلصُّعُودِ إِلَيْهِ – بَعْدَ عَنَاءٍ شَدِيدٍ – وَمَا كِدْتُ أَبْلُغُهُ حَتَّى ٱرْتَمَيْتُ عَلَى ٱلْأَرْضِ مَنْهُوكَ ٱلْقُوَى ، وَلَمَّا أَفَقْتُ بَدَأْتُ أَمْشِي فِي ٱلْجَزِيرَةِ فَرَأَيْتُهَا جَنَّةً كَثِيرَةَ ٱلْأَشْجَارِ وَٱلْأَنْهَارِ ، فَأَكَلْتُ مِنْ فَاكِهَتِهَا ٱللَّذِيذَةِ وَشَرِبْتُ مِنْ مَائِهَا ٱلْعَذْبِ ، وَجَلَسْتُ تَحْتَ ظِلِّ شَجَرَةٍ كَبِيرَةٍ أَتَنَسَّمُ ٱلْهَوَاءَ ٱللَّطِيفَ وَأُرَوِّحُ عَنْ نَفْسِي مَا لَقِيتُهُ مِنْ عَنَاءِ ٱلْبَحْرِ حَتَّى جَاءَ ٱللَّيْلُ ، فَنِمْتُ نَوْمًا هَادِئًا إِلَى ٱلصَّبَاحِ .

وَقُمْتُ فِي ٱلْيَوْمِ ٱلتَّالِي وَقَدْ عَادَ إِلَيَّ نَشَاطِي فَأَخَذْتُ أَمْشِي فِي ٱلْجَزِيرَةِ .

٧ – شَيْخُ ٱلْبَحْرِ

وَلَاحَ لِي شَبَحٌ مِنْ بَعِيدٍ ، فَٱقْتَرَبْتُ مِنْهُ ، فَإِذَا بِهِ شَيْخٌ كَبِيرٌ تَبْدُو عَلَيْهِ عَلَامَاتُ ٱلْهَرَمِ وَضَعْفُ ٱلشَّيْخُوخَةِ وَكَانَ جَالِسًا عَلَى نَهْرٍ فَحَسِبْتُهُ

مِمَّنْ رَمَاهُمْ سُوءُ الْحَظِّ إِلَى هَذِهِ الْجَزِيرَةِ ، وَقُلْتُ لَعَلَّ سَفِينَتَهُ غَرِقَتْ كَمَا غَرِقَتْ سَفِينَتِي، وَرَمَاهُ الْمَوْجُ إِلَى هَذِهِ الْجَزِيرَةِ النَّائِيَةِ كَمَا رَمَانِي .

فَبَدَأْتُهُ بِالتَّحِيَّةِ — وَأَنَا فَرِحٌ بِلِقَائِهِ — فَهَزَّ لِي رَأْسَه رَدًّا عَلَى تَحِيَّتِي. فَسَأَلْتُهُ : « مَاذَا يَصْنَعُ فِي تِلْكَ الْجَزِيرَةِ ؟ » فَأَشَارَ إِلَيَّ أَنْ أَحْمِلَهُ عَلَى ظَهْرِي إِلَى شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ مِنَ النَّهْرِ لِيَقْطِفَ مِنْهَا بَعْضَ الْفَاكِهَةِ ، فَأَخَذَتْنِي الشَّفَقَةُ عَلَيْهِ — لِضَعْفِه وَكِبَرِ سِنِّهِ — وَحَمَلْتُهُ عَلَى ظَهْرِي حَتَّى أَخَذَ مَاشَاءَ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ فَاكِهَةٍ ، وَانْحَنَيْتُ لِأُنْزِلَهُ بِرِفْقٍ فَلَمْ يَنْزِلْ

* * *

إِنَّنِي كُلَّمَا ذَكَرْتُ هَذَا الشَّيْخَ لَا أَمْلِكُ نَفْسِي مِنَ الضَّحِكِ، فَقَدْ خُدِعْتُ فِيهِ ، إِذْ كُنْتُ أَحْسَبُهُ شَيْخًا ضَعِيفًا فَانِيًا ، ثُمَّ بَدَتْ لِي حَقِيقَةُ أَمْرِهِ ، فَرَأَيْتُهُ قَوِيًّا شَدِيدَ الْقَسْوَةِ . فَقَدْ قَفَزَ عَلَى كَتِفَيَّ ، وَلَفَّ سَاقَيْهِ عَلَى عُنُقِي بِقُوَّةٍ حَتَّى كِدْتُ أَخْتَنِقُ ، وَأُغْمِيَ عَلَيَّ فَهَوَيْتُ إِلَى الْأَرْضِ ، وَلَمَّا أَفَقْتُ وَجَدْتُ هَذَا الْعَدُوَّ الْقَاسِيَ لَا يَزَالُ عَلَى كَتِفَيَّ وَقَدْ فَرَجَ سَاقَيْهِ قَلِيلًا بِمِقْدَارِ مَا يُمَكِّنُنِي مِنَ التَّنَفُّسِ ، وَلَمَّا رَآنِي قَدْ أَفَقْتُ ضَرَبَنِي بِسَاقَيْهِ ضَرَبَاتٍ مُتَوَالِيَةً فَلَمْ أَسْتَطِعْ مُخَالَفَةَ أَمْرِهِ ، وَسِرْتُ إِلَى حَيْثُ أَشَارَ ، وَمَا زَالَ يَأْكُلُ مَا يَحْلُو لَهُ مِنَ الْفَاكِهَةِ وَالثَّمَرِ طُولَ الْيَوْمِ وَجُزْءًا مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى ضَعُفَتْ قُوَايَ فَارْتَمَيْتُ عَلَى الْأَرْضِ — وَأَنَا بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ — لِشِدَّةِ مَا لَقِيَ مِنَ

ٱلتَّعَبِ فَفَرَّجَ سَاقَيْهِ قَلِيلاً حَتَّى نِمْتُ ، وَلَمَّا طَلَعَ ٱلصُّبْحُ ظَلَّ يَضْرِبُنِي بِسَاقَيْهِ وَيَرْكُلُنِي بِقَدَمَيْهِ حَتَّى أَيْقَظَنِي ، وَقَضَيْتُ يَوْمِي كَمَا قَضَيْتُ ٱلْأَمْسِ مُتَأَلِّمًا أَشَدَّ ٱلْأَلَمِ مِنْ هَذِهِ ٱلْمُصِيبَةِ ٱلَّتِي لَمْ تَكُنْ فِي ٱلْحُسْبَانِ ، وَلَمْ أَزَلْ عَلَى هَذِهِ ٱلْحَالِ مُدَّةً مِنَ ٱلزَّمَنِ .

٨ – ٱلِانْتِقَامُ مِنْ شَيْخِ ٱلْبَحْرِ

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ وَجَدْتُ كَثِيرًا مِنَ ٱلْعِنَبِ ٱلنَّاضِجِ وَإِلَى جَانِبِهِ قَرْعٌ يَابِسٌ كَبِيرُ ٱلْحَجْمِ ، فَقَسَمْتُهُ أَنْصَافًا وَغَسَلْتُهُ بِٱلْمَاءِ بِعِنَايَةٍ تَامَّةٍ ثُمَّ وَضَعْتُ فِيهِ شَيْئًا مِنَ ٱلْعِنَبِ وَتَرَكْتُهُ فِي ٱلشَّمْسِ عِدَّةَ أَيَّامٍ حَتَّى ٱخْتَمَرَ ، وَشَرِبْتُ مِنْهُ قَلِيلاً فَبَدَتْ عَلَى وَجْهِي نَشْوَةُ ٱلْفَرَحِ ، فَأَشَارَ

إِلَيَّ ٱلشَّيْخُ ٱلْمَلْعُونُ أَنْ أَسْقِيَهُ مِنْ ذَلِكَ ٱلْعَصِيرِ ، فَلَمْ أَتَرَدَّدْ فِي تَلْبِيَةِ طَلَبِهِ ، وَمَا زَالَ يَشْرَبُ حَتَّى ذَهَبَ عَقْلُهُ وَٱرْتَخَتْ سَاقَاهُ ، فَأَلْقَيْتُهُ عَلَى

ٱلْأَرْضِ وَأَخَذْتُ حَجَراً كَبِيراً فَأَلْقَيْتُهُ عَلَى رَأْسِهِ بِقُوَّةٍ فَقَتَلْتُهُ لِلْحَالِ . وَفَرِحْتُ بِهَذَا ٱلْفَوْزِ فَرَحاً لَا يُوصَفُ .

٩ – فِي ٱنْتِظَارِ ٱلْفَرَجِ

وَمَكَثْتُ عِدَّةَ أَيَّامٍ وَأَنَا أَتَرَدَّدُ عَلَى شَاطِئِ ٱلْبَحْرِ مُرْتَقِباً سَفِينَةً تَمُرُّ بِي حَتَّى أَذِنَ ٱللهُ لِي بِٱلْخَلَاصِ مِنْ هَذِهِ ٱلْجَزِيرَةِ ٱلَّتِي لَا أَنِيسَ فِيهَا ، فَلَاحَتْ لِي سَفِينَةٌ كَبِيرَةٌ ، وَرَأَيْتُهَا تَقْتَرِبُ مِنَ ٱلْجَزِيرَةِ فَأَشَرْتُ إِلَى مَنْ فِيهَا فَأَقْبَلُوا عَلَيَّ وَبَدَأُونِي بِٱلتَّحِيَّةِ ، فَرَدَدْتُهَا عَلَيْهِمْ أَحْسَنَ رَدٍّ ، وَسَأَلُونِي عَنْ قِصَّتِي فَأَخْبَرْتُهُمْ بِكُلِّ مَا حَدَثَ لِي فَعَجِبُوا مِنْ ذَلِكَ أَشَدَّ ٱلْعَجَبِ ، وَقَالَ لِي أَحَدُهُمْ :

« لَقَدْ وَقَعْتَ فِي قَبْضَةِ شَيْخِ ٱلْبَحْرِ ، وَلَوْلَا عِنَايَةُ ٱللهِ وَلُطْفُهُ بِكَ لَمَا نَجَوْتَ مِنْهُ » وَكَانَتْ هَذِهِ ٱلْجَزِيرَةُ مَشْهُورَةً عِنْدَ ٱلتُّجَّارِ بِأَنَّ مَنْ يَصِلُ إِلَيْهَا لَا تُكْتَبُ لَهُ ٱلسَّلَامَةُ .

١٠ – مَدِينَةُ ٱلْقُرُودِ

وَمَكَثْنَا مُدَّةً قَصِيرَةً مِنَ ٱلزَّمَنِ ثُمَّ أَقْلَعَتْ بِنَا ٱلسَّفِينَةُ وَقَدْ لَقِيتُ مِنْ رُبَّانِهَا عِنَايَةً كَبِيرَةً ، وَلَمْ نَزَلْ سَائِرِينَ فِي ٱلْبَحْرِ أَيَّاماً وَلَيَالِيَ حَتَّى وَصَلْنَا إِلَى مَدِينَةٍ جَمِيلَةٍ سَأَلْتُ ٱلرُّبَّانَ عَنِ ٱسْمِهَا فَأَخْبَرَنِي

أَنَّهَا مَدِينَةُ الْقُرُودِ ، وَقَدْ أَعْطَانِي أَحَدُ رِفَاقِي مِخْلَاةً كَبِيرَةً ، وَكَانَ مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ أَصْحَابِي مِخْلَاةٌ مِثْلُهَا ، وَسَارُوا — وَأَنَا مَعَهُمْ — فَمَلَأَ كُلٌّ مِنْهُمْ مِخْلَاتَهُ بِالْحِجَارَةِ وَفَعَلْتُ فِعْلَهُمْ ، وَمَا زِلْنَا سَائِرِينَ حَتَّى بَلَغْنَا غَابَةً كَبِيرَةً مَمْلُوءَةً بِشَجَرِ النَّارَجِيلِ « الْجَوْزِ الْهِنْدِي » وَعَلَى كُلِّ شَجَرَةٍ جَمَاعَةٌ مِنَ الْقِرَدَةِ ، فَأَخَذَ التُّجَّارُ يَرْجُمُونَهَا بِالْحِجَارَةِ — وَاقْتَدَيْتُ بِهِمْ فِي ذَلِكَ — فَرَأَيْتُ الْقِرَدَةَ قَدِ اهْتَاجَتْ وَغَاظَهَا مِنَّا صَنِيعُنَا بِهَا ، فَأَخَذَتْ تَرْمِينَا بِالنَّارَجِيلِ — وَنَحْنُ نَجْمَعُهُ — حَتَّى مَلَأَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا مِخْلَاتَهُ ، ثُمَّ عُدْنَا إِلَى السَّفِينَةِ ، وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي ذَهَبْنَا جَمِيعًا إِلَى الْغَابَةِ وَصَنَعْنَا مَا صَنَعْنَاهُ بِالْأَمْسِ . وَمَا زِلْنَا كَذَلِكَ عِدَّةَ أَيَّامٍ حَتَّى جَمَعْنَا مِقْدَارًا كَبِيرًا مِنَ النَّارَجِيلِ ، ثُمَّ أَبْحَرَتْ بِنَا السَّفِينَةُ أَيَّامًا وَلَيَالِيَ حَتَّى وَصَلْنَا إِلَى بَلَدٍ كَبِيرٍ فَبِعْنَا فِيهِ مَا مَعَنَا مِنَ النَّارَجِيلِ بِأَغْلَى ثَمَنٍ وَاشْتَرَيْنَا بِثَمَنِهِ كَثِيرًا مِنَ التَّوَابِلِ وَخَشَبِ الصَّنْدَلِ .

١١ — غَوَّاصُو اللُّؤْلُؤِ

وَمَا زِلْنَا نَنْتَقِلُ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ وَنَتَّجِرُ فِي كُلِّ مَكَانٍ نَحُلُّ بِهِ حَتَّى وَصَلْنَا إِلَى بَلَدٍ كَبِيرٍ حَيْثُ رَأَيْنَا غَوَّاصِي اللُّؤْلُؤِ يَغُوصُونَ فِي أَعْمَاقِ الْبَحْرِ رَغْبَةً فِي الْحُصُولِ عَلَيْهِ ، فَطَلَبْتُ إِلَى أَحَدِ الْغَوَّاصِينَ أَنْ يَنْزِلَ إِلَى قَرَارِ الْبَحْرِ وَيَجْمَعَ لِي مَا يُصِيبُهُ مِنَ اللُّؤْلُؤِ

وَأَعْطَيْتُهُ أُجْرَةً عَلَى ذَلِكَ فَفَعَلَ وَكَانَ حَظِّي سَعِيداً فَخَرَجَ وَمَعَهُ مِنَ اللُّؤْلُؤِ شَيْءٌ كَثِيرٌ .

١٢ — الْعَوْدَةُ إِلَى الْوَطَنِ

وَعُدْتُ إِلَى «الْبَصْرَةِ» وَمَعِي مِنَ الْمَالِ وَاللُّؤْلُؤِ وَخَشَبِ الصَّنْدَلِ ثَرْوَةٌ طَائِلَةٌ ، ثُمَّ سَافَرْتُ مِنَ «الْبَصْرَةِ» إِلَى «بَغْدَادَ» فَلَقِيَنِي أَهْلِي وَأَصْحَابِي فَرِحِينَ بِعَوْدَتِي سَالِماً ، وَتَصَدَّقْتُ عَلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ بِمَالٍ كَثِيرٍ وَعَزَمْتُ عَلَى الْبَقَاءِ فِي «بَغْدَادَ» طُولَ عُمْرِي آمِناً مُطْمَئِنّاً .

*
* *

وَلَمَّا انْتَهَى «السِّنْدِبَادُ» مِنْ كَلَامِهِ أَمَرَ لِلْحَمَّالِ بِمِائَةِ دِينَارٍ فَأَخَذَهَا دَاعِياً لَهُ وَانْصَرَفَ مِنْ عِنْدِهِ شَاكِراً مَسْرُوراً وَخَرَجَ مَعَهُ جَمِيعُ الْحَاضِرِينَ ، عَلَى أَنْ يَعُودُوا إِلَى «السِّنْدِبَادِ» فِي الْغَدِ

وَلَمَّا حَضَرُوا فِي الْيَوْمِ التَّالِي بَدَأَ «السِّنْدِبَادُ» يَقُصُّ عَلَيْهِمْ رِحْلَتَهُ السَّادِسَةَ فَقَالَ :

فى جزيرة الهلاك

١ – بعد عام

لعلكم تعجبون أشد العجب حين تعلمون أنني لم أتب عن السفر بعد ما لقيته في أسفاري الخمسة من الأخطار والمهالك ، ولكم العذر في هذه الدهشة ، فإنني – أنا نفسي – أعجب مثلكم من تلك المجازفة ولكن قضاء الله لا مفر منه ، فقد سولت نفسي الأمارة بالسوء أن أشق بعد الراحة وأحتمل من الآلام والمخاوف فوق ما احتملت من قبل . بعد أن بقيت في « بغداد » سنة كاملة ناعماً مرتاح القلب ، وعاودني شوق شديد إلى السفر والاتجار ، وبذل أصدقائي كل ما في وسعهم من نصح ليثنوا عزيمتي ويعوقوني عن السفر فلم يفلحوا .

٢ – هبوب العاصفة

ولما أعددت عدتي واشتريت ما أحتاج إليه من البضائع سافرت إلى البصرة حيث أبحرت وجماعة من التجار قاصدين إلى بلاد الهند ، وما زلنا سائرين في البحر أياماً وليالي حتى هبت

عَلَيْنَا — ذَاتَ يَوْمٍ — عَاصِفَةٌ شَدِيدَةٌ ، فَظَلَّتِ الْأَمْوَاجُ تَلْعَبُ بِالْمَرْكَبِ وَأَصْبَحْنَا مُهَدَّدِينَ بِالْغَرَقِ بَيْنَ سَاعَةٍ وَأُخْرَى ، وَمَكَثْنَا عَلَى هَذِهِ الْحَالِ يَوْمًا وَلَيْلَةً ، ثُمَّ هَدَأَتِ الْعَاصِفَةُ ، بَعْدَ أَنْ ضَلَّتْ سَفِينَتُنَا وَأَصْبَحْنَا لَا نَعْرِفُ فِي أَيِّ مَكَانٍ نَحْنُ وَلَا إِلَى أَيَّةِ جِهَةٍ نَقْصِدُ ، وَلَاحَ لَنَا جَبَلٌ شَاهِقٌ عَلَى مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ ، وَلَمْ يَكَدْ يَتَبَيَّنُهُ الرُّبَّانُ حَتَّى صَرَخَ مِنَ الْجَزَعِ وَبَكَى ، فَسَأَلْنَاهُ : « مَاذَا حَدَثَ ؟ » فَأَجَابَنَا مُتَأَثِّرًا حَزِينًا — : «لَقَدْ كُتِبَ عَلَيْنَا الْهَلَاكُ فِي هَذِهِ الرِّحْلَةِ ، وَلَمْ يَبْقَ لَنَا أَمَلٌ فِي النَّجَاةِ مِنَ الْمَوْتِ ، فَادْعُوا اللهَ وَاسْتَغْفِرُوا لِذُنُوبِكُمْ وَلْيُوَدِّعْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا قَبْلَ أَنْ يَحُلَّ بِكُمُ الْهَلَاكُ فَإِنَّ سَفِينَتَنَا سَتَصْطَدِمُ — لَا مَحَالَةَ — بِهَذَا الْجَبَلِ الْعَالِي الَّذِي تَرَوْنَهُ ، وَلَمْ يَنْجُ مَرْكَبٌ وَصَلَ إِلَى هَذَا الْمَكَانِ ! »

***

وَلَمْ يَكَدْ يُتِمُّ الرُّبَّانُ قَوْلَهُ حَتَّى رَأَيْنَا الْأَمْوَاجَ تَدْفَعُ الْمَرْكَبَ دَفْعًا إِلَى ذَلِكَ الْجَبَلِ ، وَحَاوَلْنَا أَنْ نُحَوِّلَ مَرْكَبَنَا إِلَى جِهَةٍ أُخْرَى فَلَمْ نُفْلِحْ ، وَمَا زَالَتِ السَّفِينَةُ سَائِرَةً بِسُرْعَةٍ هَائِلَةٍ حَتَّى وَصَلَتْ إِلَى الْجَبَلِ فَاصْطَدَمَتْ بِهِ صَدْمَةً عَنِيفَةً حَطَّمَتْهَا تَحْطِيمًا وَفَكَّكَتْ أَلْوَاحَهَا وَأَسْرَعَ كُلٌّ مِنَّا إِلَى لَوْحٍ مِنَ الْخَشَبِ لِيَنْجُوَ بِهِ مِنَ الْغَرَقِ

بَعْدَ انْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلسَّفِينَةِ أَنْفَسَ مَا فِيهَا ، وَمَا زِلْنَا مُجِدِّينَ فِي طَلَبِ ٱلْخَلَاصِ حَتَّى تَمَكَّنَّا – بَعْدَ جَهْدٍ جَهِيدٍ – مِنَ ٱلصُّعُودِ إِلَى ٱلشَّاطِئِ حَيْثُ وَضَعْنَا مَا حَمَلْنَاهُ مِنَ ٱلزَّادِ وَٱلنَّفَائِسِ ، فَقَالَ لَنَا ٱلرُّبَّانُ – : « يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَحْفِرَ قُبُورَنَا بِأَيْدِينَا ، فَلَيْسَ لَنَا أَمَلٌ فِي ٱلنَّجَاةِ مِنْ هٰذِهِ ٱلْجَزِيرَةِ ٱلَّتِي لَمْ تُكْتَبِ ٱلسَّلَامَةُ لِأَيِّ سَفِينَةٍ وَصَلَتْ إِلَيْهَا »

٣ – فِي جَزِيرَةِ ٱلْهَلَاكِ – عِظَامُ ٱلْمَوْتَى

وَقَدْ تَبَيَّنَ لَنَا صِدْقُ قَوْلِهِ ، فَقَدْ رَأَيْنَا أَمَامَنَا كَثِيرًا مِنْ بَقَايَا

ٱلسُّفُنِ ٱلْمُحَطَّمَةِ وَلَاحَتْ مِنَّا ٱلْتِفَاتَةٌ فَرَأَيْنَا كَوْمَةً مِنْ عِظَامِ

الْمَوْتَى فَعَلِمْنَا أَنَّ مَصِيرَنَا سَيَكُونُ — بِلَا شَكٍّ — مِثْلَ مَصِيرِهِمْ وَأَيْقَنَّا أَنَّ أَيَّامَنَا فِي الْحَيَاةِ مَعْدُودَةٌ، وَقَطَعْنَا الْأَمَلَ مِنَ النَّجَاةِ، وَكُنَّا نَرَى فِي كُلِّ مَكَانٍ — عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ — بَضَائِعَ وَذَخَائِرَ نَفِيسَةً مَطْرُوحَةً عَلَى الصُّخُورِ فَنَذْكُرُ مَصَارِعَ أَصْحَابِهَا مُتَرَقِّبِينَ اللَّحَاقَ بِهِمْ بَعْدَ قَلِيلٍ مِنَ الزَّمَنِ.

وَوَجَدْنَا نَهْرًا عَلَى سَفْحِ الْجَبَلِ يَخْرُجُ مِنْ كَهْفٍ مُظْلِمٍ دُونَ أَنْ يَعْلَمَ أَحَدٌ مَا وَرَاءَ هٰذَا الْكَهْفِ، وَرَأَيْنَا كَثِيرًا مِنَ الْأَحْجَارِ الْكَرِيمَةِ — كَالْمَاسِ وَالْيَاقُوتِ وَالزُّمُرُّدِ — مُبَعْثَرَةً فِي كُلِّ مَكَانٍ فَلَمْ نَلْتَفِتْ إِلَيْهَا وَمَا عُنِيَ أَحَدٌ مِنَّا بِجَمْعِهَا.

* * *

وَبَقِينَا يَائِسِينَ فِي تِلْكَ الْجَزِيرَةِ الْمُوحِشَةِ لَا أَمَلَ لَنَا فِي النَّجَاةِ لِأَنَّ كُلَّ مَرْكَبٍ نَتَرَقَّبُ وُصُولَهُ إِلَيْنَا يَكُونُ نَصِيبُهُ أَنْ يُحَطَّمَ كَمَا حُطِّمَ مَرْكَبُنَا وَيَلْقَى مَنْ فِيهِ مِثْلَ مَا لَقِينَا.

وَقَدْ قَسَمَ الرُّبَّانُ مَا مَعَنَا مِنَ الزَّادِ قِسْمَةً عَادِلَةً.

٤ — بَعْدَ فَرَاغِ الزَّادِ

وَبَقِينَا عَلَى هٰذِهِ الْحَالِ مُدَّةً مِنَ الزَّمَنِ حَتَّى نَفِدَ مَا مَعَ رِفَاقِي مِنَ الزَّادِ فَمَاتُوا جُوعًا — وَاحِدًا بَعْدَ الْآخَرِ — وَدَفَنْتُهُمْ جَمِيعًا

وَبَقِيتُ وَحْدِي بَعْدَهُمْ أَتَرَقَّبُ الْمَوْتَ ، وَكُنْتُ أَقْتَصِدُ فِي طَعَامِي فَلَا أَقْتَاتُ إِلَّا بِمِقْدَارِ مَا أَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى الْحَيَاةِ حَتَّى أَوْشَكَ زَادِي أَنْ يَنْفَدَ ، وَجَعَلْتُ أُفَكِّرُ فِي هٰذِهِ الْخَاتِمَةِ الْمُحْزِنَةِ وَأَلُومُ نَفْسِي عَلَى هٰذِهِ الرِّحْلَةِ الْمَشْئُومَةِ .

٥ ــ الأَمَلُ بَعْدَ اليَأْسِ

وَلٰكِنِّي لَمْ أَسْتَسْلِمْ لِلْيَأْسِ فَمَشَيْتُ إِلَى النَّهْرِ ، وَجَعَلْتُ أُسَائِلُ نَفْسِي وَأَنَا أَتَأَمَّلُهُ : « أَيْنَ يَذْهَبُ هٰذَا النَّهْرُ بَعْدَ أَنْ يَجْتَازَ الْكَهْفَ ؟ إِنَّهُ لَا بُدَّ آتٍ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ آهِلٍ بِالسُّكَّانِ خَلْفَ هٰذَا الْجَبَلِ الْعَالِي ! » وَخَطَرَ لِي أَنْ أَصْنَعَ زَوْرَقًا ، وَقُلْتُ لِنَفْسِي : « إِنَّنِي إِنْ بَقِيتُ فِي هٰذِهِ الْجَزِيرَةِ فَأَنَا هَالِكٌ لَا مَحَالَةَ ، فَإِذَا رَكِبْتُ زَوْرَقًا وَهَلَكْتُ دَاخِلَ الْكَهْفِ فَلَنْ أَخْسَرَ شَيْئًا . وَأَكُونُ قَدْ بَذَلْتُ مَا فِي وُسْعِي وَلَمْ أُقَصِّرْ فِي شَيْءٍ . وَمَنْ يَدْرِي فَرُبَّمَا نَجَوْتُ مِنَ الْهَلَاكِ بِهٰذِهِ الْوَسِيلَةِ » .

٦ ــ زَوْرَقُ النَّجَاةِ

وَلَمْ أَتَرَدَّدْ فِي إِنْفَاذِ هٰذِهِ الْفِكْرَةِ الْجَرِيئَةِ فَجَمَعْتُ مِنَ الْأَلْوَاحِ الْخَشَبِ مَا يَكْفِي لِصُنْعِ زَوْرَقٍ صَغِيرٍ ، وَلَمَّا أَتْمَمْتُهُ أَنْزَلْتُهُ إِلَى النَّهْرِ وَمَلَأْتُهُ بِقَدْرِ مَا يَسْتَطِيعُ حَمْلَهُ مِنَ الذَّخَائِرِ النَّفِيسَةِ وَالْحِجَارَةِ

الْكَرِيمَةِ الْمُبَعْثَرَةِ فِي أَنْحَاءِ الْجَزِيرَةِ ، وَصَنَعْتُ مِجْدَافَيْنِ صَغِيرَيْنِ ، وَصَحَّتْ عَزِيمَتِي عَلَى دُخُولِ ذَلِكَ الْكَهْفِ لِمَعْرِفَةِ مَا وَرَاءَهُ .

٧ – فِي ظُلْمَةِ الْكَهْفِ

فَرَكِبْتُ زَوْرَقِي الصَّغِيرَ وَجَعَلْتُ أُجَدِّفُ فَرَأَيْتُ الزَّوْرَقَ يَسِيرُ بِي دَاخِلَ الْكَهْفِ بِسُرْعَةٍ ، وَوَجَدْتُنِي فِي ظَلَامٍ دَامِسٍ ، وَبَقِيتُ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ مُدَّةً طَوِيلَةً حَسِبْتُهَا — لِهَوْلِ مَا أَنَا فِيهِ — أَيَّامًا وَلَيَالِيَ ، وَشَعَرْتُ بِأَنَّ الْمَكَانَ يَزْدَادُ ضِيقًا حَتَّى كَادَ زَوْرَقِي الصَّغِيرُ يَتَحَطَّمُ ، وَخَشِيتُ أَنْ يَصْطَدِمَ رَأْسِي بِسَقْفِ الْكَهْفِ فَاسْتَلْقَيْتُ عَلَى ظَهْرِي ، ثُمَّ أَجْهَدَنِي الْجُوعُ وَالتَّعَبُ وَغَلَبَنِي النُّعَاسُ فَنِمْتُ نَوْمًا عَمِيقًا .

٨ – الْخَلَاصُ مِنْ جَزِيرَةِ الْهَلَاكِ

وَلَمَّا اسْتَيْقَظْتُ وَجَدْتُنِي قَدْ خَرَجْتُ مِنْ ظُلْمَةِ الْكَهْفِ إِلَى سَهْلٍ فَسِيحٍ ، وَرَأَيْتُ زَوْرَقِي مَرْبُوطًا إِلَى جَانِبِ النَّهْرِ وَحَوْلِي جَمَاعَةٌ مِنَ النَّاسِ يَنْظُرُونَ إِلَيَّ نَظَرَاتِ الْعَطْفِ وَالدَّهْشَةِ ، فَنَهَضْتُ شَاكِرًا لَهُمْ حُسْنَ صَنِيعِهِمْ وَحَيَّيْتُهُمْ بِتَحِيَّةِ الْإِخْلَاصِ وَالْمَوَدَّةِ فَرَدُّوا عَلَيَّ بِكَلَامٍ لَمْ أَفْهَمْهُ ، وَلَمْ أَكَدْ أَتَبَيَّنُ أَنِّي قَدْ نَجَوْتُ

مِنْ جَزِيرَةِ ٱلْهَلَاكِ حَتَّى امْتَلَأَتْ نَفْسِي فَرَحًا فَأَنْشَدْتُ قَوْلَ ٱلْقَائِلِ:

« مَا بَيْنَ غَمْضَةِ عَيْنٍ وَٱنْتِبَاهَتِهَا يُغَيِّرُ ٱللهُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالِ »

٩ – فِي جَزِيرَةِ سَرَنْدِيبَ

وَكَانَ أَحَدُ ٱلْحَاضِرِينَ يَعْرِفُ ٱلْعَرَبِيَّةَ فَفَهِمَ كَلَامِي وَعَرَفَ أَنِّي عَرَبِيٌّ فَاقْتَرَبَ مِنِّي وَقَالَ :

« لَا تَعْجَبْ يَا أَخِي وَلَا تَخْشَ شَيْئًا فَأَنْتَ فِي بِلَادِنَا ، وَقَدْ رَأَيْنَاكَ نَائِمًا فِي هَذَا ٱلزَّوْرَقِ فَخَشِينَا عَلَيْكَ ٱلْغَرَقَ وَرَبَطْنَاهُ إِلَى شَاطِئِ ٱلنَّهْرِ ، وَمَكَثْنَا حَوْلَكَ حَتَّى ٱسْتَيْقَظْتَ مِنْ نَوْمِكَ ، فَقُلْ لَنَا مِنْ أَيِّ مَكَانٍ أَتَيْتَ وَإِلَى أَيِّ مَكَانٍ تَقْصِدُ ؟ »

فَسَأَلْتُهُ « وَأَيْنَ أَنَا الآنَ ؟ »

فَقَالَ لِي : « أَنْتَ فِي جَزِيرَةِ سَرَنْدِيبَ »

فَقُلْتُ لَهُ « إِنَّنِي أَكَادُ أَهْلِكُ جُوعًا »

فَأَسْرَعَ بِإِحْضَارِ الطَّعَامِ فَأَكَلْتُ حَتَّى شَبِعْتُ ثُمَّ قَصَصْتُ عَلَيْهِ قِصَّتِي فَتَرْجَمَهَا لِأَصْحَابِهِ فَعَجِبُوا أَشَدَّ الْعَجَبِ وَقَالُوا لِي : « إِنَّ قِصَّتَكَ عَجِيبَةٌ وَلَا بُدَّ مِنْ ذَهَابِكَ مَعَنَا إِلَى الْمَلِكِ لِتَقُصَّهَا عَلَيْهِ »

١٠ — فِي حَضْرَةِ مَلِكِ سَرَنْدِيبَ

وَأَرْكَبُونِي جَوَادًا وَحَمَلُوا زَوْرَقِي — بِمَا فِيهِ — عَلَى أَكْتَافِهِمْ ، وَلَمْ نَزَلْ سَائِرِينَ حَتَّى وَصَلْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَلَمَّا مَثَلْتُ بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ حَيَّيْتُهُ فَهَشَّ لِلِقَائِي وَرَدَّ عَلَيَّ التَّحِيَّةَ أَحْسَنَ رَدٍّ وَسَأَلَنِي عَنِ اسْمِي فَقُلْتُ لَهُ :

« اسْمِي السِّنْدِبَادُ وَيَدْعُونِي النَّاسُ بِاسْمِ السِّنْدِبَادِ الْبَحْرِيِّ لِكَثْرَةِ أَسْفَارِي وَرُكُوبِي الْبِحَارَ »

فَسَأَلَنِي الْمَلِكُ : « وَكَيْفَ وَصَلْتَ إِلَى هُنَا ؟ »

فَقَصَصْتُ عَلَيْهِ كُلَّ مَا حَدَثَ لِي وَلَمْ أَكْتُمْ عَنْهُ شَيْئًا ، فَدَهِشَ الْمَلِكُ لِذَلِكَ أَشَدَّ دَهْشَةٍ ، وَفَرِحَ بِنَجَاتِي وَأَمَرَ أَنْ تُكْتَبَ قِصَّتِي بِمِدَادٍ مِنَ الذَّهَبِ لِغَرَابَتِهَا وَلِمَا فِيهَا مِنَ الْعِبَرِ .

*
* *

ثُمَّ رَأَى الْمَلِكُ مَا فِي الزَّوْرَقِ مِنْ كُنُوزٍ وَنَفَائِسَ ، وَنَظَرَ إِلَى مَا يَحْوِيهِ مِنَ الْمَرْجَانِ وَالزُّمُرُّدِ وَالْمَاسِ وَهُوَ مُكَدَّسٌ أَكْدَاسًا فَوَجَدَهُ أَثْمَنَ مِمَّا فِي خَزَائِنِهِ ، وَأَبْدَى دَهْشَتَهُ مِنْ ذَلِكَ ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُ مُعْجَبًا بِتِلْكَ الْكُنُوزِ الَّتِي لَا تُقَوَّمُ بِثَمَنٍ عَرَضْتُ عَلَيْهِ أَنْ يَأْخُذَ مِنْهَا مَا يَشَاءُ وَقُلْتُ لَهُ :

« إِنَّنِي وَجَمِيعَ مَا أَمْلِكُ طَوْعُ أَمْرِكَ . »

فَأَجَابَنِي مُبْتَسِمًا : « كَلَّا يَا سِنْدِبَادُ ، إِنَّ كُنُوزَكَ مِلْكٌ لَكَ لَا يُنَازِعُكَ فِيهَا أَحَدٌ ، وَلَسْتُ طَامِعًا فِيهَا ، وَلَنْ آخُذَ مِنْهَا شَيْئًا بَلْ أَزِيدُهَا لَكَ ، بَارَكَ اللَّهُ فِيكَ وَمَتَّعَكَ بِهَا ! »

فَشَكَرْتُهُ عَلَى ذَلِكَ شُكْرًا جَزِيلًا .

١١ — فِي ضِيَافَةِ مَلِكِ سَرَنْدِيبَ

وَأَعَدَّ لِي الْمَلِكُ مَنْزِلًا مِنْ أَفْخَمِ مَنَازِلِهِ وَنَقَلَ إِلَيْهِ كُنُوزِي وَذَخَائِرِي وَهَيَّأَ لِي كُلَّ مَا أَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ عَبِيدٍ وَخَدَمٍ وَغَمَرَنِي بِكَرَمِهِ وَعَطْفِهِ ، وَهُوَ مَلِكٌ عَادِلٌ تُحِبُّهُ الرَّعِيَّةُ وَتُخْلِصُ لَهُ إِخْلَاصًا شَدِيدًا ، وَمِنْ عَادَتِهِ أَنْ يَرْكَبَ الْفِيلَ فِي مَوْكِبٍ حَافِلٍ أَيَّامَ

الْأَعْيَادِ الْعَامَّةِ ، وَكَانَ لاَ يَمُرُّ بِي يَوْمٌ دُونَ أَنْ أَزُورَهُ وَأُكَرِّرَ

لَهُ الشُّكْرَ عَلَى هَذِهِ الْعِنَايَةِ الْعَظِيمَةِ ، ثُمَّ أَخْرُجَ إِلَى الْمَدِينَةِ فَأَرَى فِيهَا غَرَائِبَ وَأَعَاجِيبَ لاَ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَصِفَهَا لَكُمْ لِكَثْرَتِهَا .

١٢ — عَجَائِبُ سَرَنْدِيبَ

وَمِمَّا أَذْكُرُهُ لَكُمْ مِنْ عَجَائِبِهَا — عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ — أَنَّ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ فِيهَا مُتَسَاوِيَانِ فِي الطُّولِ دَائِمًا بِسَبَبِ وُقُوعِهَا عَلَى خَطِّ الاِسْتِوَاءِ ، وَأَنَّ فِيهَا جَبَلاً مِنْ أَعْلَى جِبَالِ الدُّنْيَا ، وَلَقَدْ كُنْتُ أَصْعَدُ إِلَى قِمَّتِهِ أَحْيَانًا لِأُمَتِّعَ نَفْسِي بِجَمَالِ الطَّبِيعَةِ الْفَاتِنِ كَمَا كُنْتُ أَذْهَبُ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ إِلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ فَأَرَى الْغَوَّاصِينَ يَسْتَخْرِجُونَ اللُّؤْلُؤَ ؟

١٣ – كِتَابُ الْمَلِكِ إِلَى الْخَلِيفَةِ

وَمَكَثْتُ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ الْجَمِيلَةِ عِدَّةَ أَيَّامٍ ثُمَّ اشْتَاقَتْ نَفْسِي إِلَى رُؤْيَةِ وَطَنِي وَالْعَوْدَةِ إِلَى بِلَادِي ، فَاسْتَأْذَنْتُ الْمَلِكَ فِي السَّفَرِ فَتَفَضَّلَ عَلَيَّ بِالْإِذْنِ فِي ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ أَمَرَ لِي بِكَثِيرٍ مِنَ الْهَدَايَا الْغَالِيَةِ . وَلَمَّا جَاءَ يَوْمُ السَّفَرِ وَدَّعَنِي وَحَمَّلَنِي كِتَاباً رَقِيقاً إِلَى الْخَلِيفَةِ « هَارُونَ الرَّشِيدِ » وَهَدَايَا نَفِيسَةً لَا تُقَوَّمُ بِثَمَنٍ .

١٤ – الْعَوْدَةُ إِلَى بَغْدَادَ

ثُمَّ أَبْحَرَتْ بِي السَّفِينَةُ إِلَى بِلَادِي ، وَلَمْ تَزَلْ سَائِرَةً أَيَّاماً وَلَيَالِيَ حَتَّى وَصَلَتْ إِلَى « الْبَصْرَةِ » حَيْثُ سَافَرْتُ إِلَى « بَغْدَادَ » فَقَابَلَنِي أَهْلِي وَأَصْحَابِي أَحْسَنَ مُقَابَلَةٍ ، وَتَصَدَّقْتُ عَلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ، وَأَجْزَلْتُ لَهُمُ الْعَطَاءَ وَعَزَمْتُ عَلَى تَرْكِ السَّفَرِ وَالْبَقَاءِ فِي « بَغْدَادَ » طُولَ عُمْرِي حَتَّى لَا أُعَرِّضَ نَفْسِي لِلْأَخْطَارِ وَالْمَخَاوِفِ بَعْدَ مَا نَجَوْتُ مِنْهَا .

١٥ – فِي حَضْرَةِ الْخَلِيفَةِ

ثُمَّ ذَهَبْتُ إِلَى الْخَلِيفَةِ « هَارُونَ الرَّشِيدِ » فَمَثَلْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَقَصَصْتُ عَلَيْهِ قِصَّتِي وَقَدَّمْتُ لَهُ مَا أَرْسَلَهُ إِلَيْهِ مَلِكُ « سَرَنْدِيبَ » مِنَ الْهَدَايَا النَّفِيسَةِ ، فَعَجِبَ مِنْ ذَلِكَ عَجَباً شَدِيداً .

وَقَرَأَ كِتَابَ ٱلْمَلِكِ فَرَآهُ يَفِيضُ بِالرِّقَّةِ وَٱلْمَوَدَّةِ وَٱلْإِخْلَاصِ ، فَشَكَرَنِي عَلَى ذَلِكَ وَأَمَرَ لِي بِجَائِزَةٍ حَسَنَةٍ وَشَمَلَنِي بِعَطْفِهِ وَحُبِّهِ .

***

وَلَمَّا فَرَغَ « السِّنْدِبَادُ » مِنْ كَلَامِهِ أَمَرَ لِلْحَمَّالِ بِمِائَةِ دِينَارٍ فَأَخَذَهَا مِنْهُ شَاكِرًا وَٱنْصَرَفَ مَعَ جَمِيعِ ٱلْحَاضِرِينَ .

وَلَمَّا حَضَرُوا فِي ٱلْيَوْمِ ٱلتَّالِي أَخَذَ « السِّنْدِبَادُ » يَقُصُّ عَلَيْهِمْ رِحْلَتَهُ السَّابِعَةَ فَقَالَ :

مع الأفيال

١ — تَوْبَةُ ٱلسِّنْدِبَادِ عَنِ ٱلسَّفَرِ

عَزَمْتُ — بَعْدَ أَنْ عُدْتُ مِنْ رِحْلَتِي السَّادِسَةِ — عَلَى تَرْكِ الْأَسْفَارِ بَعْدَ مَا لَقِيتُهُ فِيهَا مِنَ الْمَخَاوِفِ وَالْأَخْطَارِ الَّتِي تَشِيبُ مِنْ هَوْلِهَا الْوِلْدَانُ. وَعَاهَدْتُ نَفْسِي عَهْدًا وَثِيقًا أَنْ أَقْضِيَ الْبَقِيَّةَ الْبَاقِيَةَ مِنْ عُمْرِي فِي رَاحَةٍ وَطُمَأْنِينَةٍ بَعْدَ أَنْ أَصْبَحْتُ شَيْخًا كَبِيرَ السِّنِّ، وَكَرِهَتْ نَفْسِي الْغُرْبَةَ وَالسَّفَرَ وَشَعَرْتُ بِمَيْلٍ شَدِيدٍ إِلَى الرَّاحَةِ فَتُبْتُ عَنِ السَّفَرِ تَوْبَةً صَادِقَةً وَصَحَّ عَزْمِي عَلَى الْبَقَاءِ فِي «بَغْدَادَ» نَاعِمًا هَادِئَ الْبَالِ لَا يُعَكِّرُ صَفْوِي أَيُّ كَدَرٍ.

٢ — نَقْضُ ٱلتَّوْبَةِ

تَمَنَّيْتُ أَنْ تَنْصَرِفَ عَنِّي دَوَاعِي السَّفَرِ وَالِاغْتِرَابِ، وَلَكِنْ مَا كُلُّ مَا يَتَمَنَّى الْمَرْءُ يُدْرِكُهُ، فَقَدْ عَرَضَ لِي مَا لَمْ يَكُنْ فِي الْحُسْبَانِ إِذْ جَاءَنِي رَسُولٌ مِنْ قِبَلِ الْخَلِيفَةِ «هَارُونَ الرَّشِيدِ» يَسْتَدْعِينِي إِلَى مُقَابَلَتِهِ — وَكُنْتُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ جَالِسًا بَيْنَ أَصْدِقَائِي مُطْمَئِنَّ الْبَالِ — فَلَمْ أَتَرَدَّدْ فِي تَلْبِيَةِ الْأَمْرِ.

٣ — فِى حَضْرَةِ ٱلْخَلِيفَةِ

وَلَمَّا مَثَلْتُ بَيْنَ يَدَيِ ٱلْخَلِيفَةِ حَيَّيْتُهُ فَرَحَّبَ بِقُدُومِى ثُمَّ

قَالَ لِى — : « لَقَدِ ٱخْتَرْتُكَ يَا سِنْدِبَادُ — دُونَ سِوَاكَ مِنَ ٱلنَّاسِ — لِتَذْهَبَ إِلَى مَلِكِ « سَرَنْدِيبَ » وَتَحْمِلَ إِلَيْهِ هٰذِهِ ٱلْهَدِيَّةَ وَتُبَلِّغَهُ سَلَامِى وَتَحِيَّاتِى » فَوَقَعَ عَلَىَّ هٰذَا ٱلْخَبَرُ وُقُوعَ ٱلصَّاعِقَةِ ، وَقُلْتُ لَهُ :

« أَنَا عَبْدُكَ ٱلْخَاضِعُ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ، وَلَيْسَ فِى قُدْرَتِى أَنْ أَعْصِىَ لَكَ أَمْرًا ، وَلٰكِنَّنِى أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ أَنْ تُعْفِيَنِى مِنَ ٱلْقِيَامِ فِى هٰذَا ٱلْأَمْرِ ، فَقَدْ تُبْتُ عَنِ ٱلسَّفَرِ تَوْبَةً صَادِقَةً وَأَقْسَمْتُ أَلَّا أُفَارِقَ بَلَدِى ، وَقَدْ أَصْبَحْتُ ٱلْآنَ شَيْخًا كَبِيرَ ٱلسِّنِّ لَا قُدْرَةَ لِى عَلَى ٱلسَّفَرِ وَمَتَاعِبِهِ ! »

ثُمَّ قَصَصْتُ عَلَيْهِ كُلَّ مَا حَدَثَ لِي فِي أَسْفَارِي السَّابِقَةِ مِنَ الْأَخْطَارِ وَالْمَخَاوِفِ فَعَجِبَ مِنْ ذَلِكَ أَشَدَّ الْعَجَبِ وَقَالَ لِي : « حَقًّا إِنَّ قِصَّتَكَ هَذِهِ مِنْ أَعْجَبِ مَا سَمِعْتُ وَلَكِنَّ ذَلِكَ لَا يَمْنَعُنِي أَنْ أَعْهَدَ إِلَيْكَ بِمَا أَرَدْتُ ، وَلَسْتُ أُكَلِّفُكَ شَيْئًا أَكْثَرَ مِنْ أَنْ تَذْهَبَ إِلَى مَلِكِ « سَرَنْدِيبَ » وَتَحْمِلَ إِلَيْهِ هَدِيَّتِي وَتَحِيَّتِي ثُمَّ تَعُودَ إِلَيْنَا سَالِمًا آمِنًا ، فَلَيْسَ مِنَ الْمُرُوءَةِ أَنْ يَبْدَأَنِي بِالْوُدِّ وَالْإِخْلَاصِ فَلَا أُجِيبُهُ بِمَا هُوَ أَهْلٌ لَهُ مِنَ الشُّكْرِ وَالثَّنَاءِ ؟ »

٤ — السَّفَرُ إِلَى جَزِيرَةِ سَرَنْدِيبَ

فَلَمْ أَسْتَطِعْ مُخَالَفَةَ أَمْرِهِ ، وَأَجَبْتُهُ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فَفَرِحَ فَرَحًا شَدِيدًا وَمَنَحَنِي أَلْفَ دِينَارٍ — مُكَافَأَةً لِي عَلَى ذَلِكَ — ثُمَّ أَمَرَ لِي بِمَالٍ كَثِيرٍ — فَوْقَ مَا أَعْطَانِي — لِأُنْفِقَ مِنْهُ عَلَى هَذِهِ الرِّحْلَةِ .

فَسَافَرْتُ بِهَدِيَّتِهِ وَكِتَابِهِ إِلَى جَزِيرَةِ « سَرَنْدِيبَ » وَطَابَتْ لَنَا الرِّيحُ أَيَّامًا وَلَيَالِيَ حَتَّى وَصَلْنَا إِلَيْهَا سَالِمِينَ .

٥ — فِي حَضْرَةِ مَلِكِ سَرَنْدِيبَ

وَلَمْ أَكَدْ أَذْهَبُ إِلَى مَلِكِ « سَرَنْدِيبَ » حَتَّى أَقْبَلَ عَلَيَّ وَفَرِحَ بِقُدُومِي فَرَحًا شَدِيدًا وَقَالَ لِي — : « لَقَدْ كُنْتُ فِي شَوْقٍ

شَدِيدٍ إِلَيْكَ يَا سِنْدِبَادُ ، وَكُنْتُ كَثِيراً مَا أُثْنِي عَلَيْكَ وَأُعْجَبُ بِصِدْقِ عَزِيمَتِكَ . »

فَشَكَرْتُ لَهُ ذَلِكَ ، وَقَدَّمْتُ إِلَيْهِ كِتَابَ الْخَلِيفَةِ وَهَدِيَّتَهُ فَسُرَّ بِهِمَا سُرُوراً عَظِيماً ، وَمَكَثْتُ فِي ضِيَافَتِهِ أَيَّاماً كَثِيرَةً ثُمَّ اسْتَأْذَنْتُهُ فِي الْعَوْدَةِ إِلَى بَلَدِي فَأَسِفَ عَلَى ذَلِكَ أَشَدَّ الْأَسَفِ ، وَلَمْ يَأْذَنْ لِي فِي السَّفَرِ إِلَّا بَعْدَ جَهْدٍ عَظِيمٍ لِشِدَّةِ تَعَلُّقِهِ بِي ، وَأَهْدَانِي شَيْئاً كَثِيراً مِنَ النَّفَائِسِ وَالتُّحَفِ فَقَبِلْتُهَا شَاكِراً ، ثُمَّ وَدَّعْتُهُ وَأَنَا آسِفٌ عَلَى فِرَاقِهِ .

٦ — لُصُوصُ الْبَحْرِ

وَرَأَيْتُ إِحْدَى السُّفُنِ ذَاهِبَةً إِلَى « الْبَصْرَةِ » فَنَزَلْتُ إِلَيْهَا وَسَارَتْ بِنَا فِي الْبَحْرِ وَكَانَتِ الرِّيحُ طَيِّبَةً وَالْأُمُورُ عَلَى مَا يُرَامُ فَبَقِينَا أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ نَلْهُو وَنَلْعَبُ وَنُغَنِّي فَرِحِينَ بِقُرْبِ الْعَوْدَةِ إِلَى الْوَطَنِ ، وَفِي الْيَوْمِ الْخَامِسِ فَاجَأَنَا لُصُوصُ الْبَحْرِ فَقَتَلُوا كُلَّ مَنْ قَاوَمَهُمْ شَرَّ قِتْلَةٍ وَسَلَبُوا مَا مَعَنَا مِنْ ثَرْوَةٍ وَمَتَاعٍ

وَأَسَرُوا مَنْ بَقِيَ مِنَّا وَوَقَعْتُ فِي قَبْضَتِهِمْ أَسِيراً ، ثُمَّ ذَهَبُوا بِرَكْبِنَا إِلَى جَزِيرَةٍ بَعِيدَةٍ فَبَاعُونَا فِيهَا بَيْعَ الْعَبِيدِ ، فَاشْتَرَانِي تَاجِرٌ غَنِيٌّ وَأَطْعَمَنِي وَكَسَانِي وَآوَانِي عِنْدَهُ ، ثُمَّ سَأَلَنِي بَعْدَ أَيَّامٍ قَلَائِلَ عَمَّا أُحْسِنُهُ مِنَ الْعَمَلِ فَقُلْتُ لَهُ - : « أَنَا تَاجِرٌ غَنِيٌّ لَا أُحْسِنُ عَمَلًا غَيْرَ التِّجَارَةِ وَقَدْ وَقَعْتُ فِي قَبْضَةِ لُصُوصِ الْبَحْرِ أَسِيراً . »

فَقَالَ لِي : « أَلَمْ تَتَعَلَّمِ الصَّيْدَ ؟ » فَأَجَبْتُهُ :

« لَقَدْ تَعَلَّمْتُهُ فِي صِبَايَ ، وَفِي قُدْرَتِي أَنْ أُحْسِنَهُ بَعْدَ قَلِيلٍ مِنَ الْمَرَانَةِ . »

٧ – صَيْدُ الْفِيلِ

فَأَعْطَانِي قَوْساً وَنِبَالاً وَأَرْكَبَنِي مَعَهُ فِيلًا ، ثُمَّ ذَهَبَ بِي إِلَى غَابَةٍ بَعِيدَةٍ وَقَالَ لِي : « إِنَّ هَذِهِ الْغَابَةَ مَمْلُوءَةٌ بِالْفِيَلَةِ ، وَكُلُّ مَا أَطْلُبُهُ مِنْكَ أَنْ تَخْتَبِيءَ فِي بَعْضِ الْأَشْجَارِ الْعَالِيَةِ وَمَعَكَ قَوْسُكَ وَنِبَالُكَ فَإِذَا اصْطَدْتَ فِيلًا عُدْتَ إِلَيَّ لِتُخْبِرَنِي بِذَلِكَ . »

ثُمَّ رَجَعَ مِنْ حَيْثُ أَتَى وَتَرَكَنِي وَحْدِي ، فَصَعِدْتُ إِلَى شَجَرَةٍ عَالِيَةٍ وَبَقِيتُ عَلَيْهَا طُولَ اللَّيْلِ فَلَمْ أَرَ شَيْئاً ، وَلَمَّا أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ رَأَيْتُ قَطِيعاً مِنَ الْفِيَلَةِ يَقْتَرِبُ فَأَطْلَقْتُ سِهَامِي عَلَى أَحَدِهَا فَقَتَلْتُهُ وَهَرَبَ بَاقِي الْفِيَلَةِ ، فَذَهَبْتُ إِلَى سَيِّدِي وَأَخْبَرْتُهُ بِمَا فَعَلْتُ فَسُرَّ بِذَلِكَ وَشَكَرَنِي شُكْراً جَزِيلًا وَعَادَ مَعِي إِلَى

ٱلْغَابَةِ فَحَفَرْنَا حُفْرَةً كَبِيرَةً وَارَيْنَا فِيهَا جُثَّةَ ٱلْفِيلِ حَتَّى إِذَا مَضَى عَلَيْهِ زَمَنٌ طَوِيلٌ عَادَ إِلَيْهِ فَأَخَذَ عِظَامَهُ لِيَبِيعَهَا بِأَغْلَى ثَمَنٍ .

٨ – مَعَ ٱلْأَفْيَالِ

وَمَا زِلْتُ أَصْطَادُ فِي كُلِّ يَوْمٍ فِيلًا وَأَدْفِنُهُ حَتَّى مَضَى عَلَيَّ شَهْرَانِ ، وَكُنْتُ أَتَنَقَّلُ مِنْ شَجَرَةٍ إِلَى أُخْرَى حَتَّى لَا تَفْطَنَ ٱلْفِيَلَةُ إِلَى مَكَانِي ، وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ رَأَيْتُ قَطِيعاً مِنْهَا مُسْرِعاً إِلَى
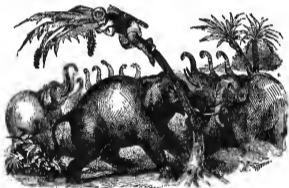
ٱلشَّجَرَةِ ٱلَّتِي كُنْتُ فَوْقَهَا . فَتَوَقَّعْتُ ٱلشَّرَّ . وَبَعْدَ قَلِيلٍ جَاءَتِ ٱلْأَفْيَالُ فَأَحَاطَتْ بِالشَّجَرَةِ وَجَعَلَتْ تُحَرِّكُ خَرَاطِيمَهَا بِعُنْفٍ وَشِدَّةٍ . – وَهِيَ تَنْظُرُ إِلَيَّ وَتُحَدِّقُ فِيَّ – فَامْتَلَأَ قَلْبِي رُعْباً وَسَقَطَ ٱلْقَوْسُ وَٱلنِّبَالُ مِنْ يَدِي . وَجَاءَ فِيلٌ كَبِيرٌ فَلَفَّ خُرْطُومَهُ عَلَى جِذْعِ

ٱلشَّجَرَةِ ٱلَّتِي كُنْتُ فَوْقَهَا . وَجَذَبَهَا إِلَيْهِ جَذْبَةً قَوِيَّةً . فَاقْتَلَعَهَا مِنْ جُذُورِهَا وَهَوَيْتُ إِلَى ٱلْأَرْضِ .

*
* *

وَٱقْتَرَبَ ٱلْفِيلُ مِنِّي فَرَفَعَنِي بِخُرْطُومِهِ وَأَجْلَسَنِي عَلَى ظَهْرِهِ وَأَنَا بَيْنَ ٱلْحَيَاةِ وَٱلْمَوْتِ مِنْ شِدَّةِ مَا لَحِقَنِي مِنَ ٱلْخَوْفِ . ثُمَّ سَارَ بِي وَمِنْ خَلْفِهِ ٱلْأَفْيَالُ ٱلْأُخْرَى إِلَى مَكَانٍ قَرِيبٍ حَيْثُ وَقَفَ وَأَنْزَلَنِي إِلَى ٱلْأَرْضِ وَعَادَتِ ٱلْفِيَلَةُ دُونَ أَنْ تَمَسَّنِي بِأَذًى ، فَخُيِّلَ إِلَيَّ أَنِّي حَالِمٌ ، وَكِدْتُ لَا أُصَدِّقُ مَا أَرَاهُ

٩ — مَقْبَرَةُ ٱلفِيلَةِ

وَنَظَرْتُ فِيمَا حَوْلِي فَرَأَيْتُ كَوْمَةً مِنْ عِظَامِ ٱلْأَفْيَالِ وَأَنْيَابِهَا فَأَدْرَكْتُ أَنَّهَا لَمْ تُحْضِرْنِي إِلَى هٰذَا ٱلْمَكَانِ إِلَّا لِأَكُفَّ عَنْ قَتْلِهَا. وَكَأَنَّهَا عَلِمَتْ أَنِّي لَا أَقْتُلُهَا إِلَّا بُغْيَةَ ٱلْحُصُولِ عَلَى ٱلْعَاجِ فَجَاءَتْ بِي إِلَى هٰذِهِ ٱلْمَقْبَرَةِ لِأَحْمِلَ مِنْهُ مَا أَسْتَطِيعُ حَمْلَهُ

وَعُدْتُ مُسْرِعًا إِلَى سَيِّدِي فَلَمْ يَكَدْ يَرَانِي حَتَّى أَقْبَلَ عَلَيَّ يُهَنِّئُنِي بِالسَّلَامَةِ وَقَالَ: «لَقَدْ مَرَرْتُ بِالْغَابَةِ ٱلْيَوْمَ فَرَأَيْتُ قَوْسَكَ وَنِبَالَكَ مُلْقَاةً عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَى جَانِبِ شَجَرَةٍ مُقْتَلَعَةٍ مِنْ جُذُورِهَا فَأَيْقَنْتُ أَنَّ ٱلْأَفْيَالَ قَتَلَتْكَ كَمَا قَتَلَتْ غَيْرَكَ مِنْ عَبِيدِنَا مِنْ قَبْلُ. فَكَيْفَ نَجَوْتَ؟» فَقَصَصْتُ عَلَيْهِ مَا حَدَثَ لِي فَعَجِبَ وَسَارَ مَعِي حَتَّى رَأَى صِدْقَ مَا قُلْتُهُ.

١٠ — خَلَاصُ ٱلسِّنْدِبَادِ مِنَ ٱلْأَسْرِ

فَفَرِحَ بِذٰلِكَ فَرَحًا شَدِيدًا وَشَكَرَنِي عَلَى ذَكَائِي كُلَّ ٱلشُّكْرِ، وَقَالَ لِي: «لَقَدْ هَدَيْتَنِي إِلَى طَرِيقِ ثَرْوَةٍ طَائِلَةٍ لَمْ أَكُنْ لِأَحْلُمَ بِهَا مِنْ قَبْلُ. وَقَدْ أَعْتَقْتُكَ وَجَعَلْتُكَ حُرًّا». فَشَكَرْتُ لَهُ ذٰلِكَ وَفَرِحْتُ بِخَلَاصِي مِنَ ٱلْأَسْرِ وَٱلْعُبُودِيَّةِ، وَٱسْتَأْذَنْتُهُ فِي ٱلْعَوْدَةِ إِلَى وَطَنِي فَأَعْطَانِي مَالًا كَثِيرًا وَهَدَايَا نَفِيسَةً. وَمِقْدَارًا وَافِرًا مِنَ ٱلْعَاجِ بِعْتُهُ — فِيمَا بَعْدُ — بِأَغْلَى ثَمَنٍ.

١١ — ٱلْعَوْدَةُ إِلَى ٱلْوَطَنِ

ثُمَّ نَزَلْتُ إِلَى مَرْكَبٍ كَانَ مُسَافِراً إِلَى « الْبَصْرَةِ » فَسَارَ فِي الْبَحْرِ أَيَّاماً وَلَيَالِيَ حَتَّى وَصَلَ إِلَى بَلَدٍ كَبِيرٍ . فَأَسْرَعْتُ بِالنُّزُولِ وَأَنَا أَحْمَدُ اللهَ عَلَى سَلَامَتِي مِنَ الْبَحْرِ ، وَذَهَبْتُ مَعَ قَافِلَةٍ كَانَتْ سَائِرَةً إِلَى « بَغْدَادَ » وَمَا زِلْنَا سَائِرِينَ فِي الْبَرِّ أَيَّاماً وَلَيَالِيَ حَتَّى وَصَلْنَا إِلَيْهَا .

١٢ — فِي بَغْدَادَ

وَلَمْ أَكَدْ أَدْخُلُ « بَغْـدَادَ » حَتَّى قَابَلَنِي أَهْلِي وَأَصْحَابِي فَرِحِينَ بِعَوْدَتِي سَالِماً . وَلَمَّا ذَهَبْتُ إِلَى ٱلْخَلِيفَةِ « هَارُونَ ٱلرَّشِيدِ » قَابَلَنِي أَحْسَنَ مُقَابَلَةٍ وَفَرِحَ بِقُدُومِي أَشَدَّ الْفَرَحِ وَقَالَ لِي :

« لَقَدْ أَقْلَقَنِي غِيَابُكَ وَخَشِيتُ عَلَيْكَ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَصَابَكَ سُوءٌ ، فَمَاذَا عَوَّقَكَ ؟ »

***

فَقَصَصْتُ عَلَيْهِ كُلَّ مَا حَدَثَ لِي فَعَجِبَ مِنْ ذَلِكَ أَشَدَّ الْعَجَبِ وَأَمَرَ أَنْ تُكْتَبَ قِصَّتِي بِمِدَادٍ مِنْ ذَهَبٍ لِتَكُونَ عِبْرَةً لِكُلِّ مَنْ قَرَأَهَا ، وَكَافَأَنِي أَجْزَلَ مُكَافَأَةٍ فَعُدْتُ مِنْ عِنْدِهِ شَاكِراً .

وَمُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَأَنَا فِي « بَغْدَادَ » أَنْعَمُ بَيْنَ أَهْلِي وَأَصْحَابِي بَعِيداً عَنِ ٱلْأَسْفَارِ آمِناً مِنَ ٱلْمَخَاوِفِ وَٱلْأَخْطَارِ .

١٣ – خاتِمَةُ القِصَّةِ

وَلَمَّا انْتَهَى السِّنْدِبادُ مِنْ كَلامِهِ ، الْتَفَتَ إلى الْهِنْدِبادِ الْحَمَّالِ وَقالَ لَهُ : « وَالآنَ ما رَأْيُكَ أَيُّها الصَّدِيقُ ؟ هَلْ سَمِعْتَ فِي حَياتِكَ أَغْرَبَ مِنْ هٰذِهِ الْقِصَّةِ ؟ وَهَلْ تَعَرَّضَ أَحَدٌ لِمِثْلِ ما تَعَرَّضْتُ لَهُ مِنَ الْمَهالِكِ وَالأَخْطارِ ؟ أَلَيْسَ مِنْ حَقِّي – بَعْدَ كُلِّ ما لَقِيتُهُ مِنَ الْمَتاعِبِ والأَهْوالِ – أَنْ أَقْضِيَ الْبَقِيَّةَ الْباقِيَةَ مِنْ عُمْرِي هادِئًا مُطْمَئِنًّا ؟ »

***

فَقامَ إِلَيْهِ « الْهِنْدِبادُ » الْحَمَّالُ وَقَبَّلَ يَدَهُ – فِي احْتِرامٍ وَأَدَبٍ – ثُمَّ قالَ لَهُ :

« الْحَقُّ أَنِّي لَمْ أَسْمَعْ أَغْرَبَ مِنْ قِصَّتِكَ ، وَلَسْتُ أَرَى أَحَدًا أَجْدَرَ مِنْكَ بِالسَّعادَةِ لِأَنَّكَ أَدْرَكْتَها بِجِدِّكَ وَاجْتِهادِكَ ، وَلَيْسَتْ مَتاعِبِي الَّتِي أَحْتَمِلُها كُلَّ يَوْمٍ شَيْئًا مَذْكُورًا إِذا قِيسَتْ إِلَى رِحْلَةٍ واحِدَةٍ مِنْ رِحْلاتِكَ الْعَجِيبَةِ ! وَلَقَدْ صَدَقَ الْقائِلُ :

« مَنْ لَمْ يَرْكَبِ الأَهْوالَ لَمْ يَنَلِ الرَّغائِبَ »

وَقَدْ حَلَّاكَ اللهُ بِصِفاتٍ نادِرَةٍ ، فَأَنْتَ – فَضْلًا عَنْ شَجاعَتِكَ وَجُرْأَتِكَ – مُحْسِنٌ بارٌّ بِالْفُقَراءِ وَالْمَساكِينِ ، وَلَيْسَ لِي ما أُكافِئُكَ

بِهِ — بَعْدَ الثَّنَاءِ عَلَيْكَ — إِلَّا الدُّعَاءُ لَكَ ، بَارَكَ اللهُ فِيكَ وَأَطَالَ عُمْرَكَ وَمَتَّعَكَ بِثَرْوَتِكَ وَصِحَّتِكَ » .

* * *

فَهَشَّ لَهُ « السِّنْدِبَادُ » وَقَرَّبَهُ إِلَيْهِ وَمَنَحَهُ مِائَةَ دِينَارٍ أُخْرَى ، وَطَلَبَ إِلَيْهِ أَنْ يَأْكُلَ مَعَهُ كُلَّ يَوْمٍ .

وَاتَّخَذَهُ « السِّنْدِبَادُ » صَاحِبًا لَهُ فَأَغْنَاهُ بَعْدَ فَقْرِهِ ، وَأَصْبَحَ « الْهِنْدِبَادُ » — مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ — مِنْ خِيرَةِ أَصْفِيَاءِ « السِّنْدِبَادِ » وَنُدَمَائِهِ .

انْتَهَتِ الْقِصَّةُ الْأُولَى

فهرست

الرحلة الأولى

على ظهر حوت

الرحلة الثانية

فى وادى الأفاعى

الرحلة الثالثة

فى بلاد الأقزام والعمالقة

ص

الرحلة الرابعة

بين جماجم الموتى

الرحلة الخامسة

«١» شيخ البحر «٢» مدينة القرود

الرحلة السادسة

فى جزيرة الهلاك

الرحلة السابعة

مع الأفيال

مكتبة الكيلانى للأطفال

. . . وهكذا نَجَحْتَ – يا أُستاذُ – فى أن تُحَبِّبَ إلى الأطفالِ مكتبتَهم وتُغْرِيَهم بالمُطالَعَةِ[١] . ولئِنْ أدركَ الأطفالُ – برياضِ الأطفالِ – مُراداً بعيداً ، لقد فتحْتَ لهُمْ – بمكتبةِ الأطفالِ – فتحًا جديداً . أدركتَ أرَبَ نفوسِهم ، وأبدلتَهم أُنْسًا من عُبوسِهم ، وهِجْتَ للمعالى أشواقَهم ، وحسَّنْتَ لُغَتَهم وأخلاقَهم[٢] . والأستاذ الكيلانى مُنشِئُ مكتبةِ الأطفالِ أديبٌ عالَمِىٌّ جديرٌ بما يَهْدِفُ إليْهِ مِنْ نَبيلِ الأغراضِ[٣] .

وإنه ليَسُرُّنى – إذْ أُتابِعُ مع التَّقديرِ هذا الجُهْدَ العِلْمِىَّ المتواصلَ – أن أُلاحِظَ مِقدارَ العِنايةِ التى تَبْذُلونَها فى هذا السَّبيلِ ، والفائِدَةَ التى تعودُ على النَّشْءِ مِنْهُ ، بتَنْبِئَةِ أذهانِ الأطفالِ وعُقولِهِمْ لِتَقَبُّلِ خيرِ الأفكارِ والمَعانى ، وتقديمِها لهُمْ على مثلِ هذه الصُّورةِ الطَّريفةِ[٤] . فاللهُ يُكافِئُكَ عَلَى ما قَدَّمْتَهُ لِلْعَرَبِيَّةِ مِنْ رَوائِعِ أدبٍ ، تُضيفُ إلى كُنُوزِها كُنوزاً[٥] . وإنِّى وقد تَتَبَّعْتُ هذا المَجهودَ القَيِّمَ المُتَّصِلَ لا يَسَعُنى إلَّا الإعْجابُ بما تُساهِمُونَ به فى سَدِّ نَقصٍ يَشْعُرُ بِهِ جميعُ الآباءِ فى تعليمِ أطفالِهِمْ[٦] . فشَكَرَ اللهُ لكَ ما هَدَفْتَ إليه مِنْ تَنْشِئَةِ الطِّفلِ مَشْبوبَ الشَّغَفِ بالقِراءةِ والدَّرْسِ ، مَوْفورَ الحَظِّ مِن مَتاعِ الفِكْرِ ، مُسْتَقيمَ اللِّسانِ على نَهْجِ البيانِ[٧] . فهى تَتَمشَّى مع طِباعِ الطِّفلِ الشَّرْقِىِّ وغرائِزِه حَتَّى يَتَرَعْرَعَ . وتَجْعَلُ الحَلْقَةَ مُتَّصِلَةً بين المَدْرسةِ والبيتِ فى قِصَصٍ مُناسِبَةٍ مُتَماسِكَةٍ مع نفسيَّةِ الطِّفلِ وعَقْلِيَّتِهِ وبِيئَتِهِ وما يَهْوَى سَماعَهُ أو يَميلُ لِوَعْيِهِ ، بأُسلوبٍ صحيحٍ فصيحٍ ، إذا حَفِظَهُ الصَّبِىُّ صَغيراً نفعَهُ كبيراً[٨] . ومِن ثَمَّ يَشِبُّ الطِّفلُ ، وقد صَحَّتْ مَلَكَتُه ، وأُشْرِبَتِ الفُصْحَى فِكرتَه[٩] .

---

(١) أحمد لطفى السيد (٢) أحمد نجيب الهلالى (٣) جعفر ولى
(٤) على ماهر (٥) محمد العشماوى (٦) محمد محيى الدين بركات
(٧) محمد توفيق رفعت (٨) محمد حلمى عيسى (٩) محمد على علوبة

رقم الإيداع		١٩٩١ / ٤٤٤٣
الترقيم الدولى	977 - 02 - 3328 - 8	ISBN

١ / ٩١ / ١١٦

طبع بمطابع دار المعارف (ج م ع)

مكتبة الأطفال بقلم كامل كيلاني

قصص فكاهية

١ عمارة . ٢ الأرنب الذكي .
٣ عفاريت اللصوص . ٤ نعمان .
٥ العرندس . ٦ أبو الحسن .
٧ حذاء الطنبوري . ٨ بنت الصباغ .

قصص من ألف ليلة

١ بابا عبد الله والدرويش .
٢ أبو صير وأبو قير . ٣ علي بابا .
٤ عبد الله البري وعبد الله البحري .
٥ الملك عجيب . ٦ خسروشاه .
٧ السندباد البحري . ٨ علاء الدين .
٩ تاجر بغداد . ١٠ مدينة النحاس .

قصص هندية

١ الشيخ الهندي . ٢ الوزير السجين
٣ الأميرة القاسية . ٤ خاتم الذكرى .
٥ شبكة الموت . ٦ في غابة الشياطين .
٧ صراع الأخوين .

قصص شكسبير

١ العاصفة . ٢ تاجر البندقية .
٣ يوليوس قيصر . ٤ الملك لير .

أساطير العالم

١ الملك ميداس . ٢ في بلاد العجائب .
٣ القصر الهندي . ٤ قصاص الأثر .
٥ بطل أثينا . ٦ الفيل الأبيض .

قصص علمية

١ أصدقاء الربيع . ٢ زهرة البرسيم .
٣ في الاصطبل . ٤ حبارة الغابة .
٥ أسرة السناجيب . ٦ أم سند وأم هند .
٧ الصديقتان . ٨ أم مازن .
٩ العنكب الحزين . ١٠ النحلة العاملة .

أشهر القصص

١ جلفر في بلاد الأقزام .
٢ « في بلاد العمالقة .
٣ « في الجزيرة الطيارة .
٤ « في جزيرة الجياد الناطقة .
٥ روبنسن كروزو .

قصص عربية

١ حي بن يقظان . ٢ ابن جبير في مصر والحجاز .

قصص تمثيلية

١ الملك النجار .